جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

الجانب الروحى فى حياة السلف
وأثره فى نشأة التصوف

دكـــتور
فتحى محمود محمد عبد الرحمن
مدرس العقيدة والفلسفة
فى كلية أصول الدين والدعوة بأسيوط

العدد السادس عشر
للعام ١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م
الجزء الأول

المقدمة

الحمد لله الذى أنشأ وبرى ، وأبدع كل شئ وذرى ، وخلق الماء والثرى ، وصلاة وسلاما على نبيه محمد المبعوث من أم القرى ، وعلى آله وصحبه الذين انتشر فضلهم فى الورى .

أما بعد ،،،

إن علم التصوف كما يراه كثير من الباحثين يمثل الحياة الروحية في الإسلام ولذلك يقعد له أصحابه قواعده وقوانينه ومنهجه وموضوعاته ببداية الإسلام استنتاجاً من القرآن الكريم وسنة الرسول الأمين (ﷺ) واستخلاصاً من حياة رسول الله (ﷺ) ، وحياة الصحابة من بعده حيث يرى هؤلاء الصوفية أن الإسلام هو الذي أرسى قواعد هذا العلم ومنه أخذت موضوعاته ومصطلحاته ونظرياته ، وعلى هذا فعلم التصوف ليس علماً غريباً عن الإسلام ، وإنما هو من صميم الإسلام وأحد علومه الأصلية .

لذلك عندما نتكلم عن الجانب الروحي عند السلف فالذي يقصد بهذا العنوان إنما هو إعطاء صورة وافية ومقنعة عن الحياة الروحية لرسول الله (ﷺ) وكذلك الحياة الروحية لحياة الصحابة الكرام (رضوان الله عليهم أجمعين) حيث كانوا أمثالاً وقدوة في زهدهم وتقشفهم وعبادتهم وتنسكهم ، كما رسموا منهج الحياة للمسلم في دينه ودنياه ، وربطوا ما بين الحياة الدنيوية والحياة الأخروية بنظام استقوه من وحي الله قرآناً وسنة وأحاديث قدسية .

لقد أخذ أصحاب رسول الله (ﷺ) هذه الحياة بعزة وكرامة وعفة ونزاهة ، وزهد وتقشف ، واشتهر من أصحاب رسول الله (ﷺ) زهاد وعباد ونساك استقوا منهجهم في الزهد والتنسك والعبادة من

القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة ، فقد طبقوا آيات القرآن التي تدعوا إلى الزهد والتقشف كما طبقوا أحاديث الرسول (ﷺ) التي تدعوا إلى التنسك والمجاهدة فكانوا بحق زهاداً وعباداً ونساكاً .

لذا لو أردنا أن نؤصل لبداية الحياة الروحية في الإسلام لوجدناها تبدأ من حياة رسول الله (ﷺ) وأصحابه ، وما كانوا يأخذون به أنفسهم من زهد في الدنيا ، وإعراض عن زخرفها وجاهها ، وإقبال على الله (ﷻ) بقلوبهم ، فتحنث النبى (ﷺ) الذي كان يقضي فيه الأيام والليالي وحيداً معتزلاً للناس في غار حراء قبل أن يهبط عليه الوحي ، وحياة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، وسيرة بلال الحبشي وأبي ذر الغفاري [١] وتميم الداري وغيرهم وما كان يأخذ به أولئك وهؤلاء وكثير غيرهم من الصحابة أنفسهم من تعبد وتقشف ومجاهدة للنفس ومعاندة للشيطان وجهاد في سبيل الله ، كل أولئك يمكن أن يعد بذوراً أولى انبثقت منها دوحة الحياة الروحية التي نمت بعد ذلك وزكت ، وامتدت أغصانها ، وانبعث ، فإذا هي تنشر ظلالها وتؤتي أكلها في حياة التابعين ، وغير التابعين ممن جاءوا بعدهم ، وكانت لهم شدة عناية بأمر الدين [٢] .

---

(١) هو جندب بن جنادة، وقد اشتهر أبو ذر بالتواضع والزهد، وكان شديد التقوى شغوفا بالعلم ، ويقال أنه كان يسامى أبا مسعود فى تفقهه فى الدين .
انظر : دائرة المعارف الإسلامية، إبراهيم زكى خورشيد وآخرون: ١ / ٤٧٧ ، ط الشعب .

(٢) انظر: الحياة الروحية فى الإسلام، د/ محمد مصطفى حلمى ، ص ١٥ وما بعدها ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ١٩٨٤م ، وراجع : التصوف والصوفية فى ضوء النصوص الدينية والبراهين

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يأتي في مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة وفهرس للمصادر والمراجع .

أما المقدمة : فقد اشتملت على أهمية الموضوع، والهدف من الدراسة ، وخطة البحث .

وأما التمهيد : فقد تضمن أهم التعريفات الواردة فى عنوان البحث .

وأما المباحث فقد جاءت مرتبة على النحو التالى :

المبحث الأول : الجانب الروحى فى حياة النبى (ﷺ) وأثره فى نشأة التصوف .

المبحث الثانى: الجانب الروحى فى حياة الصحابة (ﷺ) وأثره فى نشأة التصوف .

المبحث الثالث : مظاهر الحياة الروحية عند الصوفية .

وأما الخاتمة فقد تضمنت أهم نتائج البحث .

وأسأل الله (ﷻ) أن ينفعنا بما علمنا وأن يعلمنا ما ينفعنا وأن يرزقنا الإخلاص فى القول والعمل .

إنه ولى ذلك والقادر عليه وهو الهادى إلى سواء السبيل .

العقلية ، د / محمد شلبى ، ص ١٥ ، ط الحرية ، ط أولى ٢٠٠٧م .

التمهيد

التعريف بأهم المصطلحات الواردة فى عنوان البحث

أولا : مفهوم الجانب الروحى :

عندما يطلق مفهوم الجانب الروحى فى حياة الإنسان لا يقصد به كثرة الصلاة والصيام والتعبد وإن كان لكثرة التعبد والتنفل صلة وثيقة بالجانب الروحى فى الشخصية الإنسانية ، ولا يقصد بالجانب الروحى كذلك حسن التعامل مع الناس والأخلاق الحسنة كالشجاعة ، والعفة ، والكرم وما شاكل ذلك وإن كان للأخلاق صلة وثيقة بالجانب الروحى وإنما يقصد بالجانب الروحى – والذى يعتبر جوهرها ومضمونها – هى الصلة الداخلية للمؤمن بالله تعالى وانشداده النفسى والعاطفى به تعالى من حيث الإيمان والحب والإخلاص ، وما يرافق هذه المعانى الثلاثة الرئيسية من خوف ، ورجاء ، وتواضع ... الخ [١] .

ولذا يعرف الشيخ محمد مصطفى حلمى الحياة الروحية بقوله : " هى الحياة التى يخضع فيها الإنسان لألوان مختلفة من مجاهدة النفس وكشف حجاب الحس ، وتصفية القلب وتنقيته من أدران الشهوة والهوى وقطع العلائق المادية التى تفسد عليه صلته بربه ، وصلته بأشباهه ثم هى بعد هذا كله تأمل فى الكون ، ومشاهدة لمبدع

---

(١) انظر : نظرات حول الإعداد الروحى الشهيد الشيخ حسين معن ، ص ٥٨ ، بدون .

الكون مشاهدة سبيلها الفناء عن النفس البشرية ، وقوامها البقاء فى الذات الإلهية ، والاتحاد بالحقيقة العلية والتحقق بمعرفتها معرفة يقينية لا يأتيها الشك من بين يديها ولا من خلفها " [١] .

نشأة الحياة الروحية :

نشأت الحياة الروحية أول ما نشأت فى الإسلام من حياة التقشف والورع والزهد والتقوى وغير ذلك من مظاهر الانصراف عن الدنيا ، والإقبال على الدين ، وهذا كان شائعا بين المسلمين فى حياتهم الأولى أبان فجر الإسلام [٢] .

ثم إنها أيضا نشأت من اقتداء المسلمين فى حياتهم العامة والخاصة برسولهم الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم وبتاريخهم فى تقليده فى كل الأمور حتى أنهم كانوا أحيانا يذهبون إلى بعض أزواجه من أمهات المؤمنين ليسألوهن عن أحواله وحياته الخاصة التى لا يشاهدونها ليمكنهم تطبيق ذلك كله على أنفسهم ثم نشأت أيضا تلك الحياة من حياة كبار الصحابة وأقوالهم وأفعالهم فلقد كانوا مثلا عاليا فى التقشف والورع والزهد والتقوى وكيف لا يكون ذلك كذلك وهم رعيل محمد (ﷺ) وتلاميذ مدرسة النبوة الأولى [٣] .

مظاهر الحياة الروحية :

للحياة الروحية عدة مظاهر منها :

---

(١) الحياة الروحية فى الإسلام ، د / محمد مصطفى حلمى ، ص ٩ .
(٢) المرجع السابق نفس الصفحة .
(٣) دراسات فى التصوف والأخلاق ، د / إبراهيم محمد إبراهيم ، ص ٨ ، ٩ ، بدون .

١ - الاستغراق فى الله بالتأمل فى صفاته ، مثل التأمل فى عظمة قدرته وأفعاله ومخلوقاته ودقة صنعه وإبداع خلقه ودقة علمه الذى يسرى فى كل جزء من أجزاء الكون ، وكلما زاد الإنسان علما وزاد تأمله فى علم الله زاد خشوعا وإجلالا وتقديسا لله سبحانه ، ولهذا كان لقمان (عليه السلام) يوجه ابنه عند تربيته تربية إيمانية روحية إلى التأمل فى دقة علمه تعالى ليزيد خشوعا وإجلالا وتقديسا لله فقال : { يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ } (١)(٢) .

إن الإنسان عندما يتأمل هذه القدرة العلمية الهائلة ليقشعر جسمه لفرط تعظيم الله وإجلاله ، ولهذا فالذين يتأملون فى مخلوقات الله وعجائب مخلوقاته يزيدون شعورا بالإجلال وذكرا لله فى قيامهم وقعودهم وسيرهم { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } (٣) (٤) .

هذا الاستغراق فى الله يجعل الإنسان يحيا فى عالمه بالليل والنهار ذاكرا وساجدا وداعيا ومقدسا ومعظما ومرتلا لقوله تعالى :

---

(١)سورة لقمان الآية [١٦] .
(٢)فلسفة الحياة الروحية منابعها ومشاربها ونشأتها ونشأة التصوف والطرق الصوفية ، د / مقداد يالجن ، ص ٤٦ ، ط دار الشروق ، ط الأولى ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م .
(٣)سورة آل عمران الآيتان [١٩٠ ، ١٩١] .
(٤)فلسفة الحياة الروحية ، د / مقداد يالجن ، ص ٤٦ .

{ لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ } [١] وعندما يستغرق الإنسان فى عالم الله على هذا النحو ينسى عالمه الحسى وهمومه ومشكلاته الدنيوية ، وينسى نفسه لأن روحه تحيا فى عالمها الذى تنزع إليه بالطبيعة وتميل إليه بالفطرة [٢] .

٢ - الالتجاء إلى الله فى السراء والضراء بالذكر والدعاء :

إن الإنسان عندما يدعو الله خوفا من عذابه ليغفر له خطاياه ويعفو عن ذنوبه وهو واثق من عفوه والتجاوز عن سيئاته يزيده ذلك أملاً فى الفوز برضائه والدخول فى جناته ، كما أن دعوته بتحقيق آماله ونجاته من كل بلاء ونصره على أعدائه ، وهو إذ يدعو واثق من قبول دعائه إيمانا بقوله : { وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ } [٣][٤] ، وذكر الله يكون عند تذكر نعم الله على الإنسان فى الرزق والصحة والتوفيق والتأييد والنصر وعند التفكر فى صفاته وأفعاله وصنائعه وإبداع مخلوقاته وجمال مصنوعاته مقترنا بتذكر نعمة من نعمائه أو فضل من أفضاله أو صفة من صفاته أو فعل من أفعاله ، فإن هذا الذكر هو الذى يحدد الروح ويحلوها ويصفيها ويزيدها رقيا فى حياة روحية [٥] .

ضرورة الحياة الروحية للإنسان :

---

(١)سورة آل عمران الآية [١١٣] .
(٢)فلسفة الحياة الروحية ، د / مقداد يالجن ، ص ٤٦ ، ٤٧ .
(٣)سورة غافر من الآية [٦٠] .
(٤)فلسفة الحياة الروحية ، د / مقداد يالجن ، ص ٤٨ .
(٥)المرجع السابق ، ص ٤٩ .

يمكن تحديد ضرورة الحياة الروحية للحياة الإنسانية من النواحى الآتية :

١ - إنها حاجة روحية كما أن الحياة المادية حاجة جسمية ، وكما أن الجسم إذا حرم من حاجته فلابد من أنه يصاب بأضرار أو أمراض كذلك إذا حرمت الروح من حاجتها يصاب الإنسان بأمراض روحية وإن كان هناك فرق بين هذين النوعين من الأمراض وطريقة الإصابة بها ، إذ أن إصابة الإنسان بالأمراض الجسمية نتيجة الحرمان من الغذاء المادى يكون سريعا ، وتقدر درجة الإصابة بدرجة الحرمان ومدة هذا الحرمان ، أما بالنسبة للأمراض الروحية فإن الإنسان قد لا يشعر سريعا بضرر الحرمان كما لا يصاب بهذه الأمراض بعد الحرمان مباشرة بل قد يظهر أثر ذلك بعد مدة طويلة وقد لا يشعر المريض أن سبب ذلك هو حرمانه من الحياة الروحية وهذا ما ظهر بصورة واضحة فى المجتمعات التى توغلت فى الحياة المادية ونسيت الحياة الروحية أو أهملتها تماما [١] .

يقول سير رتشرد لفنجستون وكيل جامعة أكسفورد : " إننا نعيش جميعا فى عالمين : العالم المادى ، والعالم الروحى ... والأخير هو عالم القيم ولو أننا ضحينا به على مذبح العلوم أو الاقتصاديات أو الاجتماعيات أو أى شئ آخر لكان فى ذلك هلاكنا ، مثلنا فى ذلك كمثل من يحذف الفيتامينات من طعامه ومع ذلك فإننا لا نولى هذه الحقيقة العناية الكافية " [٢] ولهذا يبين الله أن من أهمل

---

(١) انظر : فلسفة الحياة الروحية ، د / مقداد يالجن ، ص ٥١ .

(٢) التربية لعالم حائر ، سير رتشرد لفنجستون ، ترجمة / وديع الضبع ، نقلا عن : المرجع السابق ، ص ٥١ ، ٥٢ .

الحياة الروحية أو أعرض عنها فإنه يعيش حينئذ حياة شقية فقال : { وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا } [١] [٢] .

٢ - وقاية الإنسان من بعض الأمراض التى تؤدى إليها إهمال الحياة الروحية :

ويمكن تقسيمها إلى قسمين :

الأول : الأمراض المباشرة ، مثل الشعور بالضيق والقلق والاضطراب والكآبة والشعور بالضعف أمام المسئوليات والانهيار أمام المشكلات وقد ينتهى ذلك بالانتحار ، وقد وجدنا كثيرا من المنتحرين انتحروا لأسباب ترجع إلى أحد هذه الأمور أو إليها كلها

والقسم الثانى : من الأمراض تلك التى تؤدى إلى انعدام الحياة الروحية ، وهى بدورها قسمان :

القسم الأول : الأمراض الجسمية التى تتأثر بالحالات النفسية المرضية السابقة .

والثانى : الرذائل الأخلاقية والجرائم التى يرتكبها الذين انعدمت عندهم الحياة الروحية ثم تؤدى هذه الأمراض الأخلاقية إلى الأمراض الجسمية [٣] .

وإذا كانت هذه الأمراض والشرور ناتجة عن انتشار الرذائل الأخلاقية فى المجتمع فإن الحياة الروحية خير وقاية للأفراد من السقوط فى الرذيلة ؛ لأن الحياة الروحية تكون مع الله ، ومرتبطة به ومستعينة بنصرته ، ومن كان شأنه ذلك لا يمكن أن يقع فى الرذيلة

---

(١)سورة طه من الآية [١٢٤] .

(٢)فلسفة الحياة الروحية ، د / مقداد يالجن ، ص ٥٣ .

(٣)فلسفة الحياة الروحية ، د / مقداد يالجن ، ص ٥٦ .

، ومن كان بعيدا عن تلك الرذائل والخطايا كان بعيدا عن أن يصاب بتلك الأمراض والشرور السابقة التى تؤدى إليها الوقوع فى الرذيلة ، ومن الغريب أن الحياة الروحية لا يقتصر دورها فى حماية الإنسان من تلك الأمراض الناشئة عن ابتعاد الإنسان عن الحياة الروحية بل لها دور أيضا فى شفاء الإنسان أو استعجال شفائه من بعض الأمراض [١] .

ولهذا قرر الإسلام الحياة الروحية لوقاية الإنسان من تلك الأمراض التى تترتب علي تركها مثل الأمراض النفسية ، وما ينتج عن بعض الأمراض الجسمية ، ومن العجيب أن الرسول قد أشار إلى مثل هذه الأمراض التى أثبتها العلماء أخيرا فقال مثلا : " من ساء خلقه عذب نفسه ومن كثر همه سقم بدنه " [٢] [٣] .

٣ – ضرورة الحياة الروحية كعامل من عوامل التسامى والتكامل والتقدم ، وذلك أن الحياة الروحية تهدف أولا إلى صعود الإنسان بروحه واتصاله بالله لكن ذلك لا يمكن أن يتم إلا بتسامى الإنسان عن الرذائل وتخليه عنها ثم تكامله بالفضائل للناس خالصة لوجه الله، بقدر ما يقترب من الله ويزداد ارتباطه به ، إذ أن الناس بقدر

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٦ .

(٢) أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده وابن السني وأبو نعيم في الطب كلهم عن أبي هريرة مرفوعا (الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير : ٣ / ١٨٦) ، ورواه البيهقي في شعب الإيمان : ٦ / ٢٥٠ ، تحقيق / محمد السعيد بسيوني زغلول ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط الأولى ١٤١٠هـ ، من قول الحسن البصري قال : " من ساء خلقه عذب نفسه ".

(٣) فلسفة الحياة الروحية ، د / مقداد يالجن ، ص ٥٧ .

خيراتهم تكون لهم منزلة عند الله ، وخيرية الإنسان تقاس بمدى زوال روح الشر عن نفسه وعمله ، وبمدى ما يقدم للناس من الأعمال والمشروعات الخيرة ، ولهذا قال الرسول (ﷺ) : " خير الناس أنفعهم للناس " (١) .

وذلك يكون بالتقدم الأخلاقى أساسا ولهذا قال الرسول (ﷺ): " إن من خيركم أحسنكم أخلاقا " (٢) .

وهذا التقدم الأخلاقى أو التقدم فى الخيرية الذى تعتبر الحياة الروحية أكثر عامل دافع إليه وهو أكبر وسيلة للتقدم الاجتماعى والحضارى ، ذلك أن الذى يعوق التقدم الاجتماعى والحضارى هو ازدياد الجرائم المختلفة وازدياد الناس شرا مما يؤدى إلى أن يفتك بعضهم ببعض وأن يمزق الإنسان أخاه الإنسان، وأن يعمل لسلب خيرات الناس، وممتلكاتهم ، وهذا الانحلال الأخلاقى من أكبر عوامل الإعاقة عند الحياة الاجتماعية وتقدمها (٣) .

إن الحياة الروحية الحقيقية لا تكون بمجرد الانقطاع للعبادات كواجبات تقليدية ثم ترك المجتمع والانعزال عنهم وقضاء الأوقات بالأوراد والذكر فى زوايا الطرق الصوفية بل إن الحياة الروحية الحقيقية عامل محرك بذاته ودافع قوى إلى عمل تلك الخيرات ؛ لأن التقرب إلى الله يكون من ناحيتين معا ، ناحية عبادة الله وناحية

---

(١)أخرجه البيهقيُّ في شعب الإيمان (ج١٣ رقم ٧٢٥٢) .
(٢)أخرجه البخاري في صحيحه : ٩ / ٨٧ ، ح ٣٥٥٩ ، وفي : ٩ / ٣١٤ ، ح ٣٧٥٩ ، وفي : ٣ / ١٣٠٥ ، ح ٣٣٦٦ ، تحقيق / محمد زهير ، ط دار طوق النجاة ، ط الأولى ١٤٢٢هـ .
(٣)فلسفة الحياة الروحية ، د / مقداد يالجن ، ص ٦٠ ، ٦١ .

خدمة عباده بعمل الخيرات لهم ، ومع ذلك فإذا بحث كل واحد بمقتضى هذه الحياة الروحية من وسائل تقديم الخيرات والمشروعات المختلفة الخيرة فى حق الناس ، وسارعوا إلى ذلك واستبقوا فيها فما من شك أن الحياة الاجتماعية والحياة الاقتصادية تتقدم بسرعة مذهلة لأن هذه الروح سوف تدفعهم إلى العمل فى الميادين المختلفة ليتقدموا فيها ، ليعملوا الخيرات الكثيرة [١] .

ثانيا : معنى التصوف :

لقد تعددت الأقوال والآراء فى معنى التصوف إلى معان شتى وتعريفات متعددة ، منها ما قاله أبو محمد الحريرى عن التصوف بأنه : " الدخول فى كل خلق سنى والخروج من كل خلق دنى " [٢] .

وقال معروف الكرخى : " التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما فى أيدى الخلائق " .

وقال الكتانى : " التصوف خلق ، فمن زاد عليك فى الخلق فقد زاد عليك فى الصفاء " [٣] .

وقال الجنيد [٤] : " التصوف تصفية القلب عن موافقة البرية ومقارنة الأخلاق الطبيعية ، وإخماد الصفات البشرية ، ومجانبة

---

(١) فلسفة الحياة الروحية ، د / مقداد يالجن ، ص ٦١ ، ٦٢ .

(٢) اللمع لأبى نصر السراج الطوسى ، ص ٤٥ ، تحقيق د / عبد الحليم محمود ، د / طه عبد الباقى سرور ، ط دار الكتب الحديثة بمصر ١٣٨٠هـ .

(٣) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيرى ، ص ٢١٧ ، تحقيق د / عبد الحليم محمود ، د / محمود بن الشريف ، ط دار الكتب الحديثة بالقاهرة .

(٤) هو : أبو القاسم الجنيد بن محمد ، إمام الصوفية ، أصله من نهاوند

الدواعى النفسية ، ومنازلة الصفات الروحانية ،التعلق بالعلوم الحقيقية واستعمال ما هو أولى على الأبدية ، والنصح لجميع الأمة والوفاء لله على الحقيقة واتباع الرسول (ﷺ) فى الشريعة " [١] .

ويتحدث الشبلى عن التصوف فيقول : " زهد الصوفى تحويل القلب من الأشياء إلى رب الأشياء ، وليس الصوفى من استأنس بالذكر لكنه من استأنس بالمذكور، ووفاء الصوفى هو الإخلاص بالنطق واستغراق السرائر بالصدق، وأما قلوب أهل الحق فإنها طائرة إليه بأجنحة المعرفة ومستبشرة بمولاة المحبة " [٢] .

وقد سئل عبد الواحد بن يزيد : " من الصوفية عندك ؟ قال : القائمون بعقولهم على فهم السنة ، والعاكفون عليها بقلوبهم ، والمعتصمون بسيدهم من شر نفوسهم " [٣] .

وقال أبو عثمان المغربى : " التصوف قطع العلائق ، وفض الخلائق واتصال الحقائق " [٤] .

، ومنشؤه ومولده بالعراق ، مات سنة سبعة وتسعين ومائتين .
انظر : الرسالة القشيرية ، ص ١٠٥ .

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف لأبو بكر الكلاباذى، ص ٢٥، تحقيق د / عبد الحليم محمود ، د / طه عبد الباقى سرور ، ط القاهرة ١٩٦٠م .

(٢) عوارف المعارف السهروردى، تحقيق د/ عبد الحليم محمود ، د/ محمد الشريف : ١ / ٩٦ ، ط دار الكتب الحديثة بالقاهرة .

(٣) عوارف المعارف : ١ / ١٩٤ .

(٤) فى التصوف الإسلامى وتاريخه ، ارنيولد . أ . نيكولسون ، ترجمة د / أبو العلا عفيفى ، ص ٤٠ ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٨٨هـ ١٩٦٩م ، القاهرة .

خصائص التصوف :

أهم خصائص التصوف كاتجاه روحى فى الحياة يتلخص فى أهم النقاط الآتية :

١. **الاهتمام الزائد بإصلاح الباطن عن طريق معرفة النفس ونوازعها ورغباتها وتحليل خلجاتها وخطراتها ، ثم العمل لتطهيرها من جميع الرذائل بالمجاهدات والرياضيات والعزلة والزهد والتعبد ، ثم التحلى بجميع الفضائل والمكارم الأخلاقية .**
٢. **إيثار الزهد فى الدنيا والتقشف فى الحياة ومن هنا قال أبو على الكلاباذى عندما سئل عن التصوف : " الصوفى من لبس الصوف على الصفاء ، وأطعم الهوى ذوق الجفاء وكانت الدنيا منه على القفا وسلك منهج المصطفى " [١] .**
٣. **الاهتمام بالجانب التطبيقي من الأخلاق أكثر من الجانب النظرى لأن العمل هو الأهم وليس النظر ، ونجد تطبيق هذا المبدأ لدى المتصوفين الأوائل أكثر مما نجد لدى الأواخر [٢] .**
٤. **الشعور بالطمأنينة والسعادة النفسية فى الاستغراق فى الحياة الروحية [٣] .**

---

(١)المرجع السابق ، ص ٢٥ .

(٢)فى الفلسفة والأخلاق ، د / محمد خالد جعفر ، ص ٢٧٥ ، بدون .

(٣)مدخل إلى التصوف الإسلامى ، د / أبو الوفا الغنيمى التفتازانى ، ص ٥ – ٨ ، ط دار الثقافة للنشر والتوزيع ، ط الثالثة .

وبالتأمل فى هذه المعانى السابقة نرى أن معنى التصوف يحتمل كل رياضة روحية يصفو بها الرائض من مسلمى الخلق عن غير معبوده الحق على أن لفظ التصوف - بمعنى الرياضة الروحية - قديم قدم الإنسان فى أى زمان ومن هنا يقول الأستاذ / محمد فريد وجدى : " إن الإنسان منذ ألوف السنين أدرك من خلف هذه الغلف الجسدانية سرا مكنونا لا يستثيره إلا إرهاق هذا البدن بالمجاهدات لإضعاف سطوته ، والحط من سلطانه فنشأ هذا المذهب فى كل أمة راقية ، ولبس شكلا مناسبا لعقولها وأفكارها " (١) .

ثالثا : مفهوم السلف :

معنى السلف فى اللغة : يدل معنى السلف فى اللغة على التقدم والسبق ، قال ابن فارس : " السين واللام والفاء : أصل يدل على تقدم وسبق ، ومن ذلك السلف الذين مضوا ، والقوم السلاف المتقدمون " (٢) .

وذكر ابن منظور أن للسلف معنيين : أحدهما : كل شئ قدمه العبد من معنى صالح ، أو ولد صالح ، والثانى : الذى يتقدم الإنسان من آبائه وذوى قرابته الذين هم فوقه من السن (٣) .

---

(١)دائرة معارف القرن العشرين للأستاذ / محمد فريد وجدى : ٥ / ٥٨٥ وما بعدها ، ط دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

(٢)معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، تحقيق / عبد السَّلام محمد هَارُون : ٣ / ٩٥ ، ط اتحاد الكتاب العرب ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٢م.

(٣)لسان العرب لابن منظور : ٩ / ١٩٥ ، ط دار صادر ، بيروت .

وقال ابن الأثير فى النهاية : " وسلف الإنسان من تقدمه بالموت من آبائه وذوى قرابته ، ولهذا سمى الصدر الأول من التابعين السلف الصالح " [١] .

ويدل لهذا قول النبى (ﷺ) لابنته فاطمة (رضى الله عنها) : " وإنى لأرى الأجل قد اقترب فاتقى الله واصبري فإنه نعم السلف أنا لك " [٢] .

أما السلفى هو من يرجع فى الأحكام الشرعية إلى الكتاب والسنة ويهدر ما سواهما [٣] .

السلف فى الاصطلاح : هم الصحابة (ﷺ) والتابعون لهم بإحسان المتمسكون بالقرآن والسنة على فهم الصحابة (ﷺ) [٤] .

فالسلف إذن هم أهل القرون الثلاثة الذين شهد لهم رسول الله (ﷺ) بالخيرية وأثنى عليهم فى الحديث الصحيح المتواتر المخرج فى الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة عن النبى (ﷺ) قال : "

---

(١) النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير : ٢ / ٣٩٠ ، تحقيق / طاهر أحمد الزاوى ، محمود محمد الطناحي ، ط المكتبة العلمية ، بيروت ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م .

(٢) رواه مسلم فى كتاب : فضائل الصحابة ، باب : فضائل فاطمة بنت النبى (ﷺ) ، تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي ، ط دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

(٣) المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية : ١ / ٤٦١ ، ط ثالثة .

(٤) السلفية موسوعة الحضارة العربية والإسلامية ، د / محمد عمارة ، ص ٦ وما بعدها ، ط دار المعارف للطبع والنشر ١٩٩٤م ، وراجع : موقف ابن تيمية من الأشاعرة ، د / عبد الرحمن المحمود : ١ / ٢٢ .

خير الناس قرنى ، ثم الذين يلـــونهم ، ثم الذين يلـــونهم " [١] . هــؤلاء القرون الثلاثة الذين شهد لهم رسول الله (ﷺ) بالخيرية، فالسلفية تنتمى إلى السلف ، والسلفيون ينتمون إلى هؤلاء السلف[٢] .

المبحث الأول

الجانب الروحي في حياة النبي (ﷺ) وأثره في نشأة التصوف

لقد كان الرسول (ﷺ) إماماً للمسلمين في دينهم ودنياهم ، ضرب المثل الأعلى والقدوة الحسنة في الزهد والعبــادة ، والنســك والتقشف تطبيقاً لمنهج الإسلام الذي رسمه المولى سبحانه وتعــالى في كتابه الحكيم . ونطق به الرسول (ﷺ) إرشاداً وتعليماً للمسلمين .

ولما كانت طبيعة البحث لا تستطيع استيفاء كل حياة الرسول (ﷺ) في هذا المجال فإنني سأكتفي ببعض الأقوال والأحوال التــي تعطينا صورة واضحة عن حياة الرسول (ﷺ) الروحية ومنهجه في هذه الحياة وحسبنا هنا أن ننظر في حياة النبــى (ﷺ) التــي كــان يقضيها متحنثاً في غار حراء ، وفيما كان يخضع لــه نفســه مــن مجاهدة وعزلة عن الناس ، وأن نوازن بين هــذه الحيــاة وحيــاة الطبقات المختلفة من الزهاد والعباد والصوفية ، وما اصطنعته كــل طبقة من ألوان الرياضيات والمجاهدات ، حسبنا هنا لنتبــين مبلــغ

---

(١)متفق عليه : أخرجــه البخاري فــي صــحيحه : ٦ / ٥٦١ ، ح ٢٦٥٢ ، وفي : ٩ / ١٨١ ، ح ٣٦٥١ ، وفي : ١٦ / ٢٣٤ ، ح ٦٤٢٩ ، ومسلم في صحيحه: ٧ / ١٨٥ ، ح ٦٦٣٥ .

(٢)انظر : الدعوة السلفية وموقفها من الحركات الأخرى ، عيد عباس ، ص ٩ ، ط دار الإيمان بالإسكندرية ، ط ٢٠٠٢م .

الشبه بين الحياتين ، ونستيقن من أن تحنث النبى (ﷺ) في غار حراء ، إنما هو البذرة الأولى التي نبت منها زهد الزهاد ، وعبادة العباد ، وتصوف الصوفية ، فهنالك في ذلك الغار الهادي البعيد عن ضجيج الحياة المادية ، وعجيج الممعنين في أفانيتها ، وألوان الترف والنعم فيها ، كان يتحنث النبى (ﷺ) مرة كل عام كلما أقبل شهر رمضان ، يقيم طوال هذا الشهر مزوداً بالقليل من الزاد مسرحاً طرفه في أرجاء الوجود ، متأملاً بعين قلبه كل ما امتلأ به الكون من آيات صنع الله ، هنالك كان يحيا النبى (ﷺ) حياة روحية خالصة لا تشوبها شائبة من شوائب الحياة المادية ، ولا يفسدها عليه شيء من متاع الحياة الدنيا أو جاهها ، لقد ظل النبى (ﷺ) على هذه الحال من الاعتزال والتحنث في غار حراء الذي كان يعود إليه كلما عاوده شهر رمضان ، حتى صفت نفسه ، وصقلت مرآة قلبه ، وتهيأ له أن يرى الرؤيا الصادقة ، وإذ بأنوار الحقيقة تشرق في أعماق نفسه ، وإذا هو يمعن في الحق والخير واليقين ، وما فتى كذلك حتى أشرف على الأربعين ، وهنا كان قد أتيح له من صفاء الروح ونقاء السريرة ما صار معه أهلاً لأن يهبط عليه الملك الذي أخذ يضمه ويرسله مرة ومرة وهو في كل مرة يأمره بأن يقرأ ، والنبى يجيبه بقوله ما أنا بقارئ حتى أمره الملك أخيراً أن يقرأ باسم ربه الذي خلق وكانت قراءته (ﷺ) فاتحة عهد جديد في حياته الروحية [١] .

---

(١) انظر : الحياة الروحية في الإسلام ، د / محمد مصطفى ، ص ١٨ ، وراجع : التصوف والصوفية في ضوء النصوص الدينية والبراهين العقلية ٢٨ ، ٢٩ .

فهذه الحياة التي كان يحياها النبى (ﷺ) والتي كانت سبيله إلى هبوط الملك عليه ، وسبيل قلبه على إشراق نور الوحي فيه ، إذا أمعنا النظر فيها وحللناها إلى عناصرها التي تألفت منها ، ومعانيها التي انطوت عليها ، وإذا وازنا بينها وبين حياة الزهاد والعباد الذين ظهروا في صدر الإسلام من ناحية ، وبينها وبين حياة الصوفية بعد ذلك من ناحية أخرى رأينا أن التصوف هو الاسم الجامع لطوائف أولئك وهؤلاء وتعاليمهم وما يعمدون إليه من رياضيات ومجاهدات يرمون بها إلى تنقية النفس وتصفية القلب ، وما يصطنعون في تهذيب نفوسهم من محاسبة ومراقبة ، وما ينتهون إليه بعد هذا كله من الهام مشرق ، ليس من شك فى أنه وجد بذوره الأولى في هذه الحياة الروحية الصافية التي كان قوامها عند النبى (ﷺ) ذلك التحنث الذي يأخذ به نفسه في غار حراء ، والذي كانت ثمرته اليانعة لديه هذا الوحي المتألق بآيات النبوة البينات ، الفياض بحقائق التوحيد ودقائق العرفان [١] .

أليست حياته (ﷺ) هذه بما فيها من تحنث وخلوة واكتفاء بالقليل من الزاد ، صورة أولى للحياة التي كان يحياها الزهاد والعباد والصوفية بعد ذلك ، ويخضعون فيها أنفسهم لرياضيات ومجاهدات ، ويختلف فيها على أنفسهم أذواق ومواجيد ، وكلها عندهم سبيل إلى كشف الحقيقة ... ثم أليس التصوف من حيث هو رياضة ومجاهدة ، وذوق ووجد ، وكشف ومشاهدة ، واتصال بالمصدر الأول الذي صدر

---

(١)انظر : الحياة الروحية في الإسلام ، د / محمد مصطفى ، ص ١٨ ، ١٩ .

منه الكون وكل ما في الكون من آيات الحق والخير والجمال ، مرآة صادقة تتجلى على صفحتها هذه الصورة الرائعة لهذه الحياة الروحية النقية التي كان يحياها محمد (ﷺ) [١] .

ثم إذا أمعنا النظر في حياته بعد بعثته (ﷺ) وما كان يأخذ به (ﷺ) نفسه من تقشف في الملبس والمأكل ومن عكوف على العبادة والتهجد ، حتى لقد نهاه الله عن المبالغة في ذلك بقوله : { طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى } [٢] ... وما كان يقبل عليه ، ويدعو إليه من تعبد وتزهد وتقوى وخوف وصبر وغير ذلك وما روي عنه في ذلك من الأحاديث التي كانت منبعاً ومصدراً لما أخضع الصوفية أنفسهم له من رياضيات ومجاهدات ، وما كان يتقلبون فيه من المنازل والمقامات فلقد رويت عنه (ﷺ) أقوالاً كثيرة رأى فيها الصوفية مستنداً لهم في دعوى التصوف ، ونظراً لكثرة هذه الأحاديث والأحوال ، فإني سأقتصر على بعضها بحيث تعطينا صورة واضحة عن هذه الحياة .

وبخاصة ما يتعلق منها بموقفه (ﷺ) من الدنيا والمال والولد وكيف كان تعامله (ﷺ) مع هذه الأمور فعن أبي إمامة قال رسول الله (ﷺ) : " عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبا قلت لا يا رب ولكن أشبع يوما وأجوع يوما فإذا جعت ضرعت إليك وذكرتك وإذا شبعت شكرتك وحمدتك " [٣] .

---

(١)انظر : المرجع السابق ، ص ٢٥ ، ٢٦ .
(٢)سورة طه الآيتان [١ ، ٢] .
(٣)أخرجه الترمذي في سننه : ٤ / ٥٧٥ ، ح ٢٣٤٧ ، تحقيق / أحمد محمد شاكر وآخرون ، ط مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، ط

وعن أبي هريرة قال : دخلت على رسول الله (ﷺ) وهو يصلى جالساً فقلت : ما أصابك يا رسول : فقال الجوع ، فبكيت ، قال لا تبك يا أبا هريرة فإن شدة الجوع لا تصيب الجائع (يعني يوم القيامة) إذا احتسب في دار الدنيا " [١] [٢] .

وعنه (ﷺ) أنه قال : " أزهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس " [٣] وقال (ﷺ) : " إذا أراد الله بعبده خيراً فقهه في الدين وزهده في الدنيا وبصره بعيوبه " [٤] .

هذه بعض الأحاديث التي تعطينا صورة عملية وواقعية عن حياة الرسول (ﷺ) وكيف كان زاهداً في هذه الحياة الدنيوية ، فلم يكن مولعاً بزخرفها وما فيها من مال ومتاع ، ولم يكن كانزاً للمال والمتاع وإنما كان يأخذ منها بمقدار ما يعينه على واجبات الدين والدعوة إلى الله وفي كتب السنة صورة واسعة وفضفاضة عن حياة الزهد والتقشف التي كان عليها رسول الله (ﷺ) فلقد كان (ﷺ)

الثانية ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥م ، وقال : هذا حديث حسن ، والطبراني في المعجم الكبير للطبراني : ٧ / ٢٣٠ ، ح ٧٧٤١ ، تحقيق / حمدي ابن عبد المجيد السلفي ، ط مكتبة العلوم والحكم ، الموصل ، ط الثانية ١٤٠٤هـ .

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان : ٧ / ٣١٤ .

(٢) الوفا بأحوال المصطفى للأمام أبي فرج الجوزي : ١ / ٤٧٥ وما بعدها ، ط دار الكتب الحديثة ، ط أولى ١٣١٦هـ ١٩٦٦م ، وراجع : الحياة الروحية في الإسلام ، ص ٢٦ .

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه : ٢ / ١٣٧٣ ، ح ٤١٠٢ ، تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي ، ط دار الفكر ، بيروت .

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان : ١٣ / ١٢٢ ، ح ١٠٠٥٣ عن محمد بن كعب القرظى مرسلاً .

يبيت الليالي العديدة والمتتابعة جائعاً ما في بطنه شيء بل إن أهله كانوا كذلك لا يجدون العشاء ، وكان أغلب طعامهم خبز الشعير ، وفى هذا تقول السيدة عائشة : ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام بر ثلاث ليالٍ تباعاً حتى قبض [١] .

والذي تكون حياته بهذه الصورة لا يمكن أن يكون كانزاً لطعام أو محتكراً لقوت لذى يروي مسلم أنه (ﷺ) قد مات وما شبع من خبر وزيت في يوم واحد مرتين .

ويقسم أبو هريرة على هذا فيقول : " والذي نفس أبى هريرة بيده ما أشبع رسول الله أهله ثلاثة أيام تباعاً من خبز حنطة حتى فارق الدنيا " [٢] .

وحسبنا هنا أن نشير أيضاً إلى قناعته (ﷺ) في الملبس ، إذ كان يلبس ما وجد كتاناً أو صوفاً أو قطناً ، قميصاً أو رداء أو أزاراً ، حيث يذكر المقدسى فى كتابه صفوة التصوف أن النبى (ﷺ) كان يلبس الصوف، ولذا يقول أنس بن مالك (رضي الله عنه) : " كان رسول الله (ﷺ) يجيب دعوة العبد ، ويركب الحمار ، ويلبس الصوف " [٣] ، وعن أبى بردة عن أبيه قال : " لو شاهدتنا ونحن مع نبينا (ﷺ)

---

(١)انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني : ١ / ٢٨٢ ، كتاب : الرقاق ، باب : كيف كان عيش النبي (ﷺ) ، ح ٦٤٥٤ ، ط دار المعرفة ، بيروت .

(٢)صحيح مسلم ، كتاب : الزهد : ١٨ / ١٠٨ وما بعدها .

(٣)أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده: ٣ / ٦٠٦ ، ح ٢٢٦٢ ، تحقيق د/ محمد عبد المحسن التركي ، ط هجر للطباعة والنشر ، ط الأولى ١٤١٩هـ ١٩٩٩م .

وقد أصابتنا السماء لحسبت ريحنا ريح الضأن من لبوسنا الصوف " [١] .

وهكذا يمكن القول أن لبس الصوف الخشن الذى استعمله صوفية المسلمين هو بلا شك يعد تقليدا ساد فى سلوك رسول الله (ﷺ) وصحابته ، وأنهم لم ينظروا إليه إلا على أنه لباس النبى (ﷺ) فلم تكن بهم حاجة إلى تقليد رهبان النصارى فى لباسهم بل لعلنا لا نضيف جديدا إذا ذكرنا أنهم كانوا يلبسون الشعر والجلود تأسيا برسول الله (ﷺ) [٢] .

وحسبنا هنا أن نشير إلى ما كان يأخذ به (ﷺ) نفسه من تهجد واعتكاف واستغفار فقد روت السيدة عائشة (رضي الله عنها) : أن النبي (ﷺ) كان يقوم الليل حتى تنفطر قدماه ، فقلت له لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : " أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً " [٣] ، وعن أبي هريرة (ﷺ) قال سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : " والله إني لاستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة " [٤] .

---

(١)أخرجه البيهقي في السنن الكبرى : ٢ / ٤١٩ ، ح ٣٩٨٧ ، وفي شعب الإيمان : ٥ / ١٥٣ ح ٦١٥٩ .

(٢)صفوة التصوف للمقدسى، ص ٢٣٢ ، تحقيق / غادة المقدم عدرة، ط دار المنتخب العربى ، لبنان ، بيروت ١٩٩٥م .

(٣)متفق عليه : أخرجه البخاري في صحيحه : ١٢ / ٩٥ ، ح ٤٨٣٧ ، ومسلم : ٨ / ١٤١ ، ح ٧٣٠٤ .

(٤)أخرجه البخاري في صحيحه : ١٦ / ٤٢ ، ح ٦٣٠٧ ، والترمذي في سننه : ٥ / ٣٨٣ ، ح ٣٢٥٩ .

وحسبنا كذلك أن نسجل بعض أدعيته التي تنطوي على كثير من المعاني الصوفية كقوله (ﷺ) : " اللهم اجعلني شكوراً ، واجعلني صبوراً ، واجعلني في عيني صغيرا ، وفي أعين الناس كبيرا " [١] ، وقوله (ﷺ) : " اللهم أعني بالعلم ، وزيني بالحلم ، وكرمني بالتقوى ، وجملني بالعافية " [٢] وغير ذلك من الأحاديث [٣] .

يقول الدكتور / عبد الرحمن بدوي : بعدما أورد ثلاثة وعشرين حديثاً في باب زهد النبي (ﷺ) في مأكله وملبسه وفي دنياه كلها " وهذه الشواهد كفيلة بإثبات أن النبي (ﷺ) كان يعيش عيشة الزهد والتقشف سواء في طعامه وفي لباسه ، وقد استمر على ذلك حتى وفاته ، ولم يكن ذلك عن عدم قدرة على الحصول على أطايب الطعام وفاخر الثياب لأن ما خص الرسول من غنائم من المعارك التي انتصر فيها المسلمون وغنموا كان كافياً لتوفير ما يمكنه من تحصيل ذلك لو أراد ، إنما فعل ذلك عن مبدأ في السلوك خليق بمثله وهو مبدأ الزهد في الدنيا [٤] .

كذلك يقول الدكتور / محمد مصطفى حلمي : " فكل أولئك دلائل حق وشواهد صدق على أن عبادة العباد وزهد الزهاد ، وتصوف الصوفية ، وما ينطوي عليه هذا كله من المعاني الخلقية

---

(١) أخرجه البزار في مسنده : ٢ / ١٤٢ ، ح ٤٤٣٩ .

(٢) المغني عن حمل الأسفار : ٢ / ٨٥٠ ، ح ٣١١٧ ، تحقيق / أشرف عبد المقصود ، ط مكتبة طبرية ، الرياض ١٤١٥هـ ١٩٩٥م .

(٣) انظر : الحياة الروحية في الإسلام ، ص ٥٨ وما بعدها .

(٤) تاريخ التصوف الإسلامي ، د / عبد الرحمن بدوي ، ص ١١٢ ، ط وكالة المطبوعات بالكويت ، ط الثانية ١٩٧٨هـ .

والمنازع الروحية ، قد وجد مادته الأولى فيما روي عن النبي (ﷺ) من الأحوال ، وما أثر عنه من الأقوال " [١] .

المبحث الثانى

الجانب الروحي في حياة الصحابة وأثره في نشأة التصوف

حين التحدث عن الجانب الروحي في حياة الصحابة نجد أن حياتهم كانت منبعاً ومصدراً استقى منه الصوفية تصوفهم وحياتهم الروحية ، لأن حياة الصحابة وأقوالهم حافلة بالشيء الكثير من الزهد والورع والتقشف والإقبال على الله (ﷻ) ، ولا يستطيع باحث منصف في تاريخ التصوف الإسلامي أن يغفل ما انطوت عليه حياة الصحابة وأقوالهم من المنازع الروحية والأذواق القلبية ، وذلك حينما يريد التعرف على الأسس التي قامت عليها حياة الصوفية الروحية .

---

(١) الحياة الروحية في الإسلام ، ص ٢٦ .

إن حياة الصحابة كانت صورة من الحياة الروحية عند رسول الله (ﷺ) فلقد كان الصحابة في الحقيقة مقتدين بالنبي (ﷺ) في أقواله وأحواله ، وقد امتدحهم القرآن الكريم في قوله تعالى { وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ } (١) .

وقد أثنى عليهم القرآن الكريم أيضاً في قوله تعالى : { وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } (٢) وغير ذلك من الآيات ، وأشار الرسول الكريم (ﷺ) إلى علو منزلتهم فقال (ﷺ) : " الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن أذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد أذى الله ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه " (٣) .

وفي البخاري أن رسول الله (ﷺ) قال : " لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه " (٤) .

هذه بعض الآيات والأحاديث التي تدل على تمجيد الصحابة وتكريمهم ، واعترافاً بما أسدوه للإسلام من تضحيات بالنفس والمال

---

(١)سورة التوبة : من الآية [١٠٠] .
(٢)سورة الأنفال : من الآية [٧٤] .
(٣)سنن الترمذي ، كتاب : المناقب ، باب ٥٩ ، ح ٣٨٦١ ، تحقيق / أحمد محمد شاكر وآخرون ، ط دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، والحديث صحيح .
(٤)صحيح البخاري : ٧ / ٧١ ، كتاب : المناقب ، باب : قول النبي (ﷺ) : لو كانت متخذاً خليلاً ، ح ٣٦٧٣ .

والأهل والولد ، ومثل هؤلاء الرجال لابد وأن يكونوا ذوي حياة روحية عالية وراقية متمسكة بتعاليم الإسلام .

لأن مما لاشك فيه أن الحياة الروحية لهؤلاء الصحابة كانت سلوكاً وتطبيقاً لمنهج الإسلام دون إفراط ولا تفريط لأنهم كانوا – كما سبق ذكره – مقتدين في هذه الحياة الروحية برسول الله (ﷺ) في كل كبيرة وصغيرة قدر استطاعتهم وفي حدود طاقتهم .

ولأجل هذا نظر الصوفية إلى هؤلاء الصحابة على أنهم قدوة لهم في كل معانيهم وأحوالهم الظاهرة والباطنة .

وإذا أردنا أن نستطرد كل أقوال الصحابة وأحوالهم التي جعلها الصوفية مصدراً لهم في حياتهم الروحية ما استطعنا ولكن حسبنا أن نشير إلى بعض تلك الأحوال والأقوال مما له دلالة على ما نحن بصدد الحديث عنه .

ومما روي عن أحوال الصحابة إجمالاً قول أبي عتبة الحلواني : ألا أخبركم عن حال كان عليها أصحاب رسول الله (ﷺ) أولها : لقاء الله تعالى كان أحب إليهم من الحياة ، والثانية : لا يخافون عدواً قلوا أو كثروا ، والثالثة : لم يكونوا يخافون عذراً من الدنيا وكان واثقين برزق الله تعالى [١] .

ونبدأ بالحديث عن أصحاب رسول الله (ﷺ) بما بدأ به رسول الله (ﷺ) حيث قال : " اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر رضي الله عنهما " [٢] .

---

(١)انظر : اللمع للطوسي ، ص ١٦٧ .

(٢)أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط : ٤ / ١٤٠ ، ح ٣٨١٦ ، تحقيق / طارق بن عوض الله بن محمد ، عبد المحسن بن إبراهيم

الجانب الروحي في حياة وأحوال أبي بكر (ﷺ) وأثره في نشأة التصوف .

أبو بكر الصديق السابق إلى التصديق ، المقلب بالعتيق ، المؤيد من الله بالتوفيق صاحب النبي (ﷺ) في الحضر والأسفار ، ورفيقه الشفيق في جميع الأطوار ، النازل فيه قوله تعالى { لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ } [١] . توحد الصديق في الأحوال بالتحقيق ، واختار الاختبار من الله حين دعاه إلى الطريق ، فتجرد من الأموال والأعراض وانتصب في قيام التوحيد للتهدف والأغراض ، صار للمحن هدفاً ، وللبلاء غرضاً ، وزهد فيما عزا له جوهراً كان أو عرضاً ، تفرد بالحق عن الالتفات إلى الخلق ، وقد قيل إن التصوف الاعتصام بالحقائق عند اختلاف الطرائق [٢] .

لقد كان أبو بكر الصديق زاهداً حتى ليروى عنه أنه كان يطوي ستة أيام وكان لا يزيد عن ثوب واحد ، وكان يقول : " إذا دخل العبد العجب بشيء من زينة الدنيا مقته الله حتى يفارق تلك الزينة " [٣] ، وكان يقول (ﷺ) في بعض ما يدعو به ربه : " اللهم امنحن الخير الوفير في الدنيا ورغبني في التخلص منها " فهو يطلب خيراً ، وخيراً وفيراً ، ثم يقف من هذا الخير موقف المتعفف عنه ، المنصرف عن الاشتغال به ففي هذه الحالة يظهر معنى الزهد ، وتعرف منازل الزاهدين في هذا الصراع

الحسيني ، ط دار الحرمين ، القاهرة ١٤١٥هـ .

(١)سورة الحديد : من الآية [١٠] .

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للأصفهاني : ١ / ٦٢ بتصرف ، ط دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، ط أولى ١٤١٨هـ ١٩٩٧م .

(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء : ١ / ٣٧ .

الذي يقوم بين دواعي النفس إلى هذا الزاد الشهي الذي بين يديها ، وبين تعففها عنه ، وزهدها فيه ، وتعاليها عليه [١] .

وهو (ﷺ) قد تحدث عن أثر التقوى وثمرة اليقين والتواضع في حياته فقال : " وجدنا الكرم في التقوى ، والغنى في اليقين ، والشرف في التواضع " [٢].

وتحدث (ﷺ) عن المعرفة التي تتذوق الروح وأثرها في الحياة والروحية لمن يتذوقها فقال : " من ذاق من خالص المعرفة شيئاً شغله ذلك عما سوى الله ، واستوحش من جميع البشر " [٣] .

وحكي عن الجنيد – أحد كبار الصوفية – قال : " أشرف كلمة في التوحيد قول أبي بكر سبحان من لم يجعل للخلق طريقاً إلى معرفته إلا العجز عن معرفته " [٤] .

وعن زيد بن أرقم أن أبا بكر (ﷺ) : استسقى فأتي بإناء فيه ماء وعسل ، فلما أدناه من فيه بكى وأبكى من حوله ، فسكت وما سكتوا . ثم عاد فبكي حتى ظنوا أن لا يقدروا على مساءلته ، ثم مسح وجهه وأفاق . فقالوا : ما هاجك على هذا البكاء ؟ قال: كنت مع النبي (ﷺ) وجعل يدفع عنه شيئاً ويقول: " إليك عني، إليك عني " لم أر معه أحداً فقلت : يا رسول الله أراك تدفع عنك شيئاً ولا أرى

---

(١) الأدب الصوفي في مفهوم جديد ، أ / عبد الكريم الخطيب ، ص ٩ وما بعدها ، ط دار الثقافة العربية ١٣٨٤هـ ١٩٦٥م ، القاهرة .
(٢) إحياء علوم الدين للغزالى : ٣ / ٣٤٣ ، ط دار المعرفة ، بيروت .
(٣) المرجع السابق : ٤ / ٢٩٥ .
(٤) انظر : الرياض النضرة في مناقب العشرة للمحب الطبري : ١ / ١٣٢ وما بعدها ، ط القاهرة ١٣٢٧هـ .

معك أحداً ؟ قال : " هذه الدنيا تمثلت فيها ؛ فقلت لها : إليك عني فتنحت وقالت : أما والله لئن انفلت مني لا ينفلت من بعدك [١] فخشيت أن تكون قد لحقتني فذاك الذي أبكاني قال الشيخ الأصفهاني – رحمه الله – وكان (ﷺ) لا يفارق الجد ولا يجاوز الحد ، وقد قيل : إن التصوف الجد في السلوك إلى مالك الملوك [٢] .

وعن زيد بن الأرقم ، قال : كان لأبي بكر الصديق (ﷺ) مملوك يغل عليه فأتاه ليلة بطعام فتناول منه لقمة ، فقال له المملوك : مالك كنت تسألني كل ليلة ولم تسألن الليلة ؟ قال : حملني على ذلك الجوع ، من أين جئت بهذا ؟ قال : مررت بقوم في الجاهلية فرقيت لهم فوعدوني ، فما أن كان اليوم مررت بهم فإذا عرس لهم فأعطوني، قال : إن كدت أن تهلكني ، فأدخل يده في حلقه فجعل يتقيأ ، وجعلت لا تخرج، فقيل له: إن هذه لا تخرج إلا بالماء، فدعا بطست من ماء فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمى بها ، فقيل له : يرحمك الله كل هذا من أجل هذه اللقمة ؟ قال : لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها ، سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : " كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به " [٣] فخشيت أن ينبت شيء من جسدي من هذه اللقمة ، قال الأصفهاني – رحمه الله – وكان (ﷺ) يقدم على الحاضر لما يؤمل فيه من المساء . وقد قيل : إن التصوف السكون إلى اللهيب ، في الحنين إلى الحبيب [٤] .

---

(١)شعب الإيمان للبيهقي : ٧ / ٣٦٥ ، رقم ١٠٥٩٦ .
(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للأصفهانى : ١ / ٦٤ .
(٣)شعب الإيمان للبيهقي : ٥ / ٥٦ ، رقم ٥٧٥٩ .
(٤)حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للأصفهانى : ١ / ٦٤ .

وهذه الرواية قد نسبت لأبي بكر الصديق (ﷺ) بعضاً من الصفات الطيبة والأخلاق العالية التي تمثل جانباً من جوانب الحياة الروحية عنده ، فالجوع ، والتقوى، والزهد والفقه والورع وتحري الحلال والالتزام بمنهج الإسلام وتعاليمه، وإرشادات الرسول ونصائحه كل هذه صفات طيبة وسلوك حميد يرفع الروح ويعلو بالنفس فتكون قريبة من ربها وعلى صلة قوية وعظيمة بمولاها وخالقها .

ولذلك كان يقول (ﷺ) : " وددت أن أكون خضراء تأكلني الدواب ، ولم أخلق مخافة العذاب وهول يوم الحساب " [١] .

ويقال : " هذه الأبيات لأبي بكر رضي الله عنه " .

يا من ترفع بالدنيا وزينتها ∴ ليس الترفع رفع الطين بالطين
إذا أردت شريف الناس كلهم ∴ فانظر إلى ملك في زي مسكين
ذاك الذي عظمت في الناس رافته ∴ وذاك يصلح للدنيا والدين[٢]

وغير ذلك ما جعله الصوفيه فيما بعد أساساً لكلامهم في هذه المعاني .

عمر بن الخطاب (ﷺ) :

ثاني القوم عمر الفاروق ، أعلن الله تعالى به دعوة الصادق المصدوق ، محتملاً لما احتمل الرسول ، ومصطبراً على المكاره لما يؤمل من الوصول ، ومفارقاً لمن اختار التنعيم والترفيه ، ومعانقاً لما

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى : ٣ / ١٩٨ ، ط دار صادر ، بيروت .

(٢) انظر : اللمع للطوسي ، ص ١٧٢ .

كلف من التشمير والتوجيه وكان للحق قائلاً، وبالحق صائلاً ، وللأثقال حاملاً ، ولم يخف دون الله طائلاً وقد قيل : إن التصوف ركوب الصعب ، في حلال الكرب [١] .

قال الطوسي – رحمه الله – عن اقتداء الصوفية بعمر (ﷺ) ما نصه : " لأهل الحقائق أسوة وتعلق بعمر (ﷺ) بمعانى خص بها من اختياره لبس المرقعة أو الخشونة وترك الشهوات ، واجتناب الشبهات ، وإظهار الكرامات وقلة المبالاة ، من لائمة الخلق عند انتصاب الحق ، ومحق الباطل ومساواة الأقارب والأباعد في الحقوق ، والتمسك بالأشد من الطاعات " [٢] .

وليس هناك أدل على تقشف عمر من أنه كان يخطب وهو خليفة وعليه إزار فيه ثنتا عشرة رقعة ، وقميص فيه أربع رقاع دون أن يكون له غيرهما ، ومن أنه كان يغسل ثوبه بيده ، وليس أدل على ما كان يراه من أثر الرضا والصبر في النفس الخاضع لهما الآخذ بهما مما كتبه إلى أبي موسى الأشعري وهو يقول : " أما بعد : فإن الخير كله في الرضا ، فإن استطعت أن ترضي وإلا فاصبر " ومن قوله : " وجدنا خير عيشنا الصبر " [٣] . وكان من أزهد الناس في الدنيا ورغبة في الآخرة لذلك قال طلحة بن عبد الله : " ما كان عمر بأولنا إسلاماً ولا أقدمنا هجرة ، ولكنه كان أزهدنا في الدنيا وأرغبنا في الآخرة " [٤] .

---

(١) حلية الأولياء للأصفهانى : ١ / ٧٣ بتصرف .
(٢) اللمع للطوسي ، ص ١٧٤ .
(٣) الحياة الروحية في الإسلام ، د / محمد مصطفى حلمي ، ص ٢٧ .
(٤) الرياض النضرة في مناقب العشرة للمحب الطبري : ١ / ٢٠٠ .

ولقد مر عمر (ﷺ) على مزبلة فاحتبس عندها ، فكان أصحابه تأذوا بها فقال : هذه دنياكم التي تحرصون عليها ، أو تتكلمون عليها .

قال الشيخ الأصفهاني – رحمه الله – : وكان عن فناء الملاذ منتهياً ، ولباقي المعاد مبتغياً يلازم المشقات ، ويفارق الشهوات . وقد قيل أن التصوف حمل النفس على الشدائد الذي هو أشرف الموارد [١] .

ومن مظاهر تزهد عمر (ﷺ) وتمثل الحياة الروحية فيه ما قاله أنس (ﷺ) حيث قال : تقرقر بطن عمر (ﷺ) وكان يأكل الزيت عام الرمادة ، وكان قد حرم على نفسه السمن ، قال : فنقر بطنه بأصبعه وقال : تقرقر ما تقرقر إنه ليس لك عندنا حتى يحيا الناس [٢] .

وكان (ﷺ) لا يجمع في سماطة بين إدامين ، وقدمت إليه حفصة (رضي الله عنها) مرقاً بارداً وصبت عليه زيتاً فقال : إدامان في إناء واحد لا آكله حتى ألقى الله (ﷻ) [٣] .

وقالت حفصة بنت عمر (ﷺ) : يا أمير المؤمنين لو لبست ثوباً هو ألين من ثوبك ، وأكلت طعاماً هو أطيب من طعامك فقد وسع الله (ﷻ) من الرزق ، وأكثر من الخير ؟ فقال : إني سأخصمك إلى نفسك ، ما تذكرين ما كان يلقى رسول الله (ﷺ) من شدة العيش ،

---

(١) حلية الأولياء للأصفهانى : ١ / ٨٤ .
(٢) المصدر السابق نفس الجزء والصفحة .
(٣) الطبقات الكبرى للشعراني ، ص ٣٠ ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط الأولى ١٤١٨هـ ١٩٩٧م .

فما يذكرها حتى أبكاها ، فقال لها : والله إن قلت ذلك أما والله لئن استطعت لاشاركنهما بمثل عيشهما الشديد ، لعلي أدرك معهما عيشهما الرخى [١] .

وعن الحسن أن عمر (ﷺ) قال : والله أني لو شئت لكنت من ألينكم لباسا وأطيبكم طعاماً ، وأرقكم عيشاً ، ولكني سمعت الله (ﷻ) عير قوماً بأمر فعلوه ، فقال : { أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا } [٢] .

وقال في أحدى خطبه : لا تعلمون أن الطمع فقر ، وأن اليأس – أي مما في أيدي الناس – غني وأن الرجل إذا يئس من شيء استغنى عنه [٣] .

ويرى الصوفية في ظهور خوارق العادات عن المكاشفات والكرامات على يد عمر أنه قد بلغ أعلى درجة من درجات الصديقين . ودلائل ذلك كما يقولون ظهرت لما كان يخطب فصاح في وسط خطبته : " يا سارية الجبل ، وسارية في عسكر على باب نهاوند [٤] ، فسمع صوت عمر (ﷺ) عندئذٍ . وأخذ نحو الجبل وظفر بالعدو.

---

(١)حلية الأولياء للأصفهانى : ١ /٨٤ ، ٨٥ .
(٢)المصدر السابق : ١ /٨٥ ، والآية من سورة الأحقاف من الآية [٢٠] ،
(٣)المصدر السابق : ١ /٨٧ .
(٤)مدينة بقرب همذان قديمة ؛ قالوا: إنها من بناء نوح (عليه السلام) .
انظر : آثار البلاد وأخبار العباد للقزوينى : ١ / ١٩٢ ، المصدر : موقع الوراق .

وقيل لسارية : كيف علمت ذلك ؟ فقال: سمعت صوت عمر (ﷺ) يقول : يا سارية الجبل " [١] .

عثمان بن عفان (ﷺ) :

ثالث القوم القانت ذو النورين ، والخائف ذو الهجرتين ، والمصلي إلى القبلتين ، فكان ممن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، غالب أحواله الكرم والحياء ، والحذر والرجاء ، حظه من النهار الجود والصيام ، ومن الليل السجود والقيام ، مبشر بالبلوى ، ومنعم بالنجوى .

وقد قيل : إن التصوف الأكباب على العمل ، تطرفاً إلى بلوغ الأمل [٢] .

لقد كان (ﷺ) قدوة لأهل التصوف في أكثر أموره وأحواله ، ففي مجاهدته لنفسه . يروي عنه أنه حمل حزمة حطب من بعض بساتينه ، وكان له عدة مماليك ، فقيل له : لو دفعتها إلى بعض عبيدك فقال : أني قد استطعت أن أفعل ذلك ، فدل ذلك على أنه كان لا يدع مجاهدة نفسه ، فلا يسكن إلى ما جمع من الأموال ، لأنه ليس في ذلك كغيره [٣] .

ويروى عن زهده (مع كثرة ماله) أن الإنفاق كان أحب إليه من الإمساك فهو قد جهز جيش العسرة ، واشترى بئر رومة من يهودي كان يمنع المسلمين عنها .

---

(١) الرياض النضرة في مناقب العشرة : ٢ / ١٢ .
(٢) حلية الأولياء : ١ / ٩٢ ، ٩٣ .
(٣) الرياض النضرة في مناقب العشرة : ٢ / ١١٠ .

حتى قال عنه رسول الله (ﷺ) : " ما ضر عثمان ما فعل بعد هذا " [١] .

وقد بين عثمان أن للمال عنده وظيفة اجتماعية ، فقال : " لولا أني خشيت أن يكون في الإسلام ثلمة : " ثغرة " أسدها بهذا المال ما جمعته " [٢] .

وعن عبد الله بن شداد بن الهاد ، قال : رأيت عثمان بن عفان يوم الجمعة على المنبر عليه أزار عدني غليظ ، ثمنه أربعة درهم – أو خمسة درهم – .

وعن الحسن وقد سئل عن القائلين في المسجد – أي الذين يقضون وقت القيلولة في المسجد – فقال رأيت عثمان بن عفان يقيل في المسجد وهو يومئذٍ خليفة قال : ويقوم وأثر الحصى بجنبه قال : فيقال هذا أمير المؤمنين هذا أمير المؤمنين .

وعن شرحبيل بن مسلم : أن عثمان كان يطعم الناس طعام الإمارة ، ويدخل بيته فيأكل الخل والزيت [٣] .

وكان (ﷺ) من رياضة نفسه على الزهد والتقشف ودوام التفكير في الله والدأب على النظر في كتاب الله بحيث كان يقضي نهاره طاوياً وليله محيياً وبحيث لم يكن ليترك النظر في المصحف كل يوم وهو يقول : " هذا كتاب ربي " ولابد للعبد إذا جاءه كتاب سيده

---

(١)سنن الترمذى : ٥ / ٦٢٦ ، رقم ٣٧٠١ .
(٢)الرياض النضرة في مناقب العشرة : ٢ / ١١٠ .
(٣)حلية الأولياء : ١ / ٩٨ .

أن ينظر فيه كل يوم ليعمل بما فيه وما فتئ كذلك حتى قتل والمصحف بين يديه [١] .

ولقد قالت أمرآته حين قتلوه : لقد قتلتموه وأنه ليحيي الليلة بالقرآن في ركعة .

قال الشيخ الأصفهاني كان (ﷺ) مبشراً بالمحن والبلوى ، ومحفوظاً فيها من الجزع والشكوى ، يتحرز من الجزع والصبر ، ويتبرر في المحن بالشكر .

وقد قيل : إن التصوف الصبر على مرارة البلوى ، ليدرك به حلاوة النجوى [٢] .

فعن أحمد بن سنان قال : سمعت عبد الرحمن بن مهدي يقول : كان لعثمان شيئان ليس لأبي بكر ولا عمر مثلهما : صبر على نفسه حتى قتل مظلوماً ، وجمع الناس على المصحف ، وكان بالمال إرضاء الله متوصلاً وببذله لعباد الله متنفلاً ، ولحظ نفسه منه متقللاً ، وفي لباسه متعللاً . وقد قيل : إن التصوف ابتغاء الوسيلة إلى منتهى الفضيلة [٣] .

وقد فلسف صوفية الإسلام حادث مقتل عثمان (ﷺ) فلسفة خاصة فيقول الطوسي في اللمع : " ... ومما يدل على تخصيصه (أي عثمان) بالتمكين والثبات والاستقامة ، ما روي عنه أنه يوم قتل لم يبرح من موضعه ، ولم يأذن لأحد بالقتال ، ولا وضع المصحف من حجره إلى أن قتل (ﷺ) ، وسال الدم على المصحف ، وتلطخ

---

(١) الحياة الروحية في الإسلام ، د / محمد مصطفى ، ص ٢٧ ، ٢٨ .
(٢) حلية الأولياء : ١ / ٩٥ .
(٣) حلية الأولياء : ١ / ٩٦ .

بالدم ، ووقع الدم على موضع هذه الآية : { فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [١] " [٢] .

والتمكين حال رفيع ، يقول الطوسى : " سمعت أبا عمرو بن علون يقول : سمعت الخبير – رحمه الله – ليلة من الليالي ، وهو يقول في مناجاته : إلهي أتريد أن تخدعني عنك بقربك، أم تريد أن تقطعني عنك بوصلك، هيهات هيهات ! قلت لأبي عمرو ، وما معنى قوله : هيهات هيهات ! قال : التمكين " [٣] .

ويقول القشيري في رسالته عن معنى التمكين : " التمكين صنعة أهل الحقائق ، فما دام العبد في الطريق فهو صاحب تلوين ، لأنه يرتقي من حال إلى حال ، وينتقل من وصف إلى وصف ، فإذا وصل تمكن [٤] .

وهكذا رأى الصوفية أن عثمان بن عفان (ﷺ) كان متحققاً بالوصول إلى الله وبمقام التمكين الذي جعله ثابتاً لمجاري الأقدار لا يزعزعه شيء مما حوله . وقد روي عنه (ﷺ) أيضاً أقوال لها دلالة صوفية . منها قوله : " وجدت الخير مجموعاً في أربعة : أولها : التحبب إلى الله تعالى [بالنوافل] ، والثاني : الصبر على أحكام الله تعالى ، والثالث : الرضا بتقدير الله (ﷻ) ، والرابع : الحياء من نظر الله (ﷻ) [٥] .

---

(١)سورة البقرة من الآية [١٣٧] .
(٢)اللمع للطوسى ، ص ١٧٨ .
(٣)المصدر السابق ، ص ١٧٨ .
(٤)الرسالة القشيرية ، ص ٤١ .
(٥)اللمع للطوسي ، ص ١٧٨ .

علي بن أبي طالب (ﷺ) :

هو صاحب القلب العقول ، واللسان السؤول ، والأذن الوعي ، والعهد الوافي ، فقاء عيون الفتن ، ووقي من فنون المحن ، فدفع الناكثين ، ووضع القاسطين ، ودمغ المارقين .

وقد قيل إن التصوف مرامقة المودود ، ومصارمة المحدود [١] .

وعند الحديث عن حياة الإمام علي بن أبي طالب الروحية نجد أن علياً (ﷺ) كان خشناً في مأكله وملبسه ، بل إنه كان يوصي عُماله (حكام الأقاليم) وهو أمير المؤمنين على التبلغ في هذه الحياة بما قل من العيش والرفق بالرعية وكثيراً ما كان يكتب إليهم يدعوهم إلى التقشف لأن هذا التقشف هو طريق التنعم في الآخرة .

لذلك كان (ﷺ) يأتي في نهاية كل أسبوع إلى بيت المال فإن كان فيه بقية من مال أو غيره قام بتوزيعه على الفقراء والمحتاجين دون أن يخص نفسه منه بشيء . وكان يقول : يا صفراء يا بيضاء غرى غيري حتى ما بقي دينار ولا درهم [٢] .

وقيل : إنه قد جاءه ثوبان أحدهما قديم والآخر جديد فبادر وأعطى الجديد لغلامه قمبر ولبس القديم فكلمه الصحابة في ذلك فقال (ﷺ) إن قمبر شاب يتطلع إلى الحياة لذلك فالثوب الجديد هو اللائق

---

(١) حلية الأولياء للأصفهانى : ١ / ١٠٠ .

(٢) التصوف والصوفية في ضوء النصوص الدينية والبراهين العقلية ، د / محمد شلبي ، ص ٥٢ بتصرف .

به ، وما هو (أي علي (ﷺ)) فقد أصبح شيخاً ليس في حياته ما يستدعي الثوب الجديد لذلك كان الأليق به هو الثوب القديم .

ولذلك طلب معاوية (ﷺ) من أحد الناس أن يصف له علياً بن أبي طالب (ﷺ) فكان مما قاله : كان فينا كأحدنا ، يجيبنا إذا دعوناه ، ويرضينا إذا سألناه لا يطمع القوي في باطل عنده ، ولا ييأس الضعيف من حق يناله على يده ، كان والله كثير اللوعة ، ويأنس بالله وحشته ، وأقسم لقد رأيته ذات ليلة وقد سكنت طوارق الليل وغارت وهو قائل (قائل هنا بمعنى ساكن) في محرابه يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين ويقول : يا دنيا غري غيري ، إليّ تعرضت أم إليّ تشوقت ، هيهات هيهات قد باينتك ثلاثاً لا رجعة فيها فنعميك وأجلك قصير ، آهٍ من قلة الزاد وطول السفر ووحشة الطريقة [١] .

ولأمير المؤمنين علي (ﷺ) خصوصية خص بها من بين أصحاب رسول الله (ﷺ) بمعاني جليلة وإشارات لطيفة ، وألفاظ مفردة ، وعبارة وبيان للتوحيد والمعرفة والإيمان وغير ذلك ، وخصال شريفة تعلق وتخلق به أهل الحقائق من الصوفية ، وإن ذكرنا ذلك كله طال بنا الحديث ولكن نذكر من ذلك طرفاً نكتفي به عن التطويل .

فمنها لما سئل أمير المؤمنين (ﷺ) وقيل له : بما عرفت ربك ؟ فقال : بما عرفني نفسه ، لا تشبهه صورة ، ولا يدرك بالحواس ، ولا يقال بالناس قريب في بعده ، بعيد في قربه ، فوق كل

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٢ .

شيء ولا يقال شيء تحته ، وتحت كل شيء ولا يقال شيء فوقه ، أمام كل شيء ولا يقال شيء أمامه ، داخل في الأشياء لا كشيء ولا من شيء ، ولا في شيء ، ولا بشيء ، سبحان من هو هكذا ولا هكذا غيره [١] .

وقام رجل إلى علي بن أبي طالب (ﷺ) فسأله عن الإيمان ، فقال : الإيمان على أربع دعائم على الصبر ، واليقين ، والعدل ، والجهاد ، ثم وصف الصبر على عشر مقامات ، وكذلك اليقين والعدل والجهاد ، فوصف كل واحد منها على عشر مقامات .

قال الطوسي : فإن صح ذلك عنه فهو أول من تكلم في الأحوال والمقامات [٢] . ولذلك قال في حقه رسول الله (ﷺ) : يا علي إن الله – تعالى – قد زينك بزينة لم تزين العباد بزينة أحب إلى الله تعالى منها ، هي زينة الأبرار عند الله (ﷻ) الزهد في الدنيا فجعلك لا تزرأ من الدنيا شيئاً ولا تزرأ الدنيا منك شيئاً ، ووهب لك حب المساكين فجعلك ترضى بهم أتباعاً ويرضون بك إماماً [٣] .

وكان من أقواله (ﷺ) : ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ، ولكن الخير أن يكثر علمك ، ويعظم حلمك ، وأن تباهي الناس بعبادة ربك ، فإن أحسنت حمدت الله ، وإن أسأت استغفرت الله ، ولا خير

---

(١) اللمع للطوسي ، ص ١٧٩ بتصرف .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٨٠ .
(٣) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال للمتقي الهندي البرهان ، ص ٥٣ ، تحقيق / بكري حياني – صفوة السقا ، ط مؤسسة الرسالة ، ط الخامسة ١٤٠١هـ ١٩٨١م ، وراجع : حلية الأولياء : ١ / ١١٣ .

في الدنيا إلا لأحد رجلين ، رجل أذنب ذنباً فهو تدارك ذلك بتوبة ، أو رجل يسارع في الخيرات ولا يقل عمل في تقوى وكيف يقل ما يتقبل .

ولذلك قال الشيخ الأصفهاني – رحمه الله – وقد ذكر بعض ما نقل عنه من التقلل والتزهد ، واشتهر به من الترهب والتعبد .

وقد قيل : إن التصوف السلو عن الأعراض ، بالسمو إلى الأغراض [١] .

وعن علي بن الأرقم عن أبيه ، قال : رأيت علياً وهو يبيع سيفاً له في السوق ، ويقول : من يشتري مني هذا السيف فوالذي فلق الحبة لطالما كشف به الكرب عن وجه رسوله الله (ﷺ) ، ولو كان عندي ثمن إزار ما بعته [٢] .

وروي عنه (ﷺ) أنه قال : الخير كله مجموع في أربعة : الصمت والنطق والنظر والحركة ، فكل نطق لا يكون في ذكر الله – تعالى – فهو لغو ، وكل صمت لا يكون في فكر فهو سهو ، وكل نظر لا يكون في عبرة فهو غفلة ، وكل حركة لا تكون في تعبد لله فهي فترة ، فرحم الله عبداً جعل نطقه ذكراً وصمته فكراً ونظره عبرة وحركته معبداً ، ويسلم الناس من لسانه ويده [٣] .

قال أبو عبيدة – رحمه الله – : ارتحل الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) تسع كلمات قطع الأطماع عن اللحاق بواحدة منهن ، ثلاث في المناجاة ، وثلاث في العلم ، وثلاث في الأدب ، فأما

---

(١) حلية الأولياء للأصفهاني : ١ / ١١٧ ، ١٢٢ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٢٥ وما بعدها .
(٣) اللمع للطوسي ١٨٢ .

التي في المناجاة فهي قوله : كفاني عزاً أن تكون لي رباً وكفي بي فخراً أن أكون لك عبداً أنت لي كما أحب فوفقني لما تحب ، وأما التي في العلم فهي قوله المرء مخبؤه تحت لسانه فتكلموا تعرفوا ، ما ضاع امرؤ عرف قدره ، وأما التي في الأدب فهي قوله أنعم على من شئت تكن أميره ، واستغن عمن شئت تكن نظيره ، واحتج إلى من شئت تكن أسيره [١] .

ولعلي (ﷺ) أشباه من ذلك كثير من الأحوال والأخلاق والأفعال التي يتعلق بها أرباب القلوب وأهل الإشارات وأهل المواجيد من الصوفية .

وفي ختام الحديث عن ذكر الحياة الروحية عند الخلفاء الأربعة نقول كما ذكر الطوسي في اللمع : " فمن ترك الدنيا كلها وخرج من جميع ما يملك وجلس على بساط الفقر والتجريد بلا علاقة فإمامه فيه أبو بكر الصديق (ﷺ) ، ومن أخرج بعضها وترك البعض لعياله ولصلة الرحم وأداء الحقوق فإمامه فيها عمر بن الخطاب (ﷺ) ومن جمع لله ومنع لله وأعطى لله وأنفق لله فإمامه فيها عثمان بن عفان (ﷺ) ومن لا يحول حول الدنيا ، وإن جمعت عليه من غير طلبه رفضها وهرب منها فإمامه في ذلك علي بن أبي طالب (ﷺ) [٢] .

ونحن لا نجد بذور الحياة الروحية الإسلامية مغروسة في قلب النبي (ﷺ) وصحابته من الخلفاء الأربعة فحسب وإنما نجدها

---

(١) الطبقات الكبرى للشعراني ٣٢ .
(٢) اللمع للطوسي ١٨٢ .

أيضاً نامية في قلوب كثير من الصحابة غير الخلفاء ، فأهل الصفة من الصحابة مثلاً كان لهم أثر قوي في تاريخ الحياة الروحية الإسلامية عامة ، وفي تاريخ التصوف الإسلامي خاصة حتى إن بعضهم ليذهب إلى أن كلمة تصوف قد أخذت من اسمهم ، وقد كان أهل الصفة جماعة من فقراء المهاجرين والأنصار ، كانوا يفدون على رسول الله (ﷺ) وليس لهم أهل ولا مال ، فبنيت لهم صفة في مسجد رسول الله (ﷺ) انقطعوا في صفتهم إلى الله وعكفوا على العبادة ، وأمعنوا واتجهوا وجهة روحية خالصة ، وهم الذين نزل فيهم قوله تعالى مخاطباً الرسول : { وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} (١) (٢).

وقد وصف أبو نعيم الأصفهاني في كتابه " حلية الأولياء " أهل الصفة فقال : " هم قوم أحلاهم الحق من الركون إلى شيء من العروض ، وعصمهم من الافتتان بها عن الفروض ، وجعلهم قدوة للمتجردين من الفقراء ، ولا يأوون إلى أهل ولا مال ، ولا يلهيهم عن ذكر الله تجارة ولا مال ، لم يحزنوا على ما فاتهم من الدنيا ، ولم يفرحوا إلا بما أيدوا به من العقبى (٣) .

---

(١)سورة الكهف الآية [٢٨] .

(٢)انظر : تلبيس إبليس لابن الجوزى ، ص ٢٢٤ ، ط دار الجبل ، بيروت ، وراجع : الحياة الروحية في الإسلام د/ محمد مصطفى حلمي ، ص ٢٩ .

(٣)حلية الأولياء للأصفهانى : ١ / ٢٣٧ وما بعدها ، وراجع : مدخل

وكان رسول الله (ﷺ) يحبهم ويعطف عليهم ويجالسهم وكان أهل بيته يوالونهم ويخالطونهم اقتداء به ، وسيراً على نهجه : فقد كان الحسن بن علي ابن أبي طالب، وعبد الله بن جعفر، ممن يرون في محبة أهل الصفة كمال الدين ، وفي مجالستهم تمام الشرف ، ويتقربون منهم اقتباساً من أخلاقهم وآدابهم [١] .

ولقد كان أبو هريرة ، ومعاذ بن جبل ، وعمران بن حصين وأبو ذر الغفاري وغيرهم من أشهر من سكن الصفة طيلة حياة النبي (ﷺ) ولم يبرحوها وقد ذكرت كتب الطبقات الشيء الكثير عن زهدهم وتقشفهم ، وأحوالهم وأحوال غيرهم من الصحابة الذين لزموا الصفة . وسوف تقتصر الدراسة على نموذج من هؤلاء .

الجانب الروحي في حياة أبي ذر الغفاري :

هو العابد الزهيد ، القانت الوحيد ، رابع الإسلام ، وأول من حيا الرسول بتحية الإسلام ، لم يكن تأخذه في الحق لائمة اللوام ، ولا تفزعه سطوة الولاه والحكام .

فعن أبي بكر بن المنكدر. قال: بعث حبيب بن مسلمة – وهو أمير الشام – إلى أبي ذر بثلاثمائة دينار وقال : استعن بها على حاجتك ، فقال أبو ذر : ارجع بها إليه ، أما وجدت أحداً أغر بالله منا ، مالنا إلا ظل نتوارى به ، ووثلة من غنم تروح علينا ، ومولاة لنا تصدقت علينا بخدمتها ، ثم إني لأتخوف الفضل [٢] .

إلى التصوف الإسلامي لأبى الوفا التفتازانى ، ص ٥٥ ، ط دار الثقافة للنشر والتوزيع ، ط الثالثة .

(١) الحياة الروحية في الإسلام ، ص ٢٩ .

(٢) انظر : حلية الأولياء للأصفهانى : ١ / ٣١٠ وما بعدها

وعنه (ﷺ) قال : والله لو تعلمون ما أعلم ما انبسطتم إلى نسائكم ، ولا تقاررتم علـــى فرشـــكم ، والله لـــوددت أن الله (ﷻ) خلقني يوم خلقني شجرة تعضد ويؤكد ثمرها .

وعن عبد الله بن محمد قال : سمعت شيخاً ، يقول : بلغنا أن أبا ذر كان يقول : يا أيها الناس إني لكم ناصح ، إني عليكم شفيق ، صلوا في ظلمة الليل لوحشة القبور ، صوموا في الدنيا لحـــر يـــوم النشور ، تصدقوا مخافة يوم عسير ، يا أيها الناس إني لكم ناصح ، إني لكم شفيق [١] . وكان يقول : لو أن صاحب المنزل يـــدعنا فيـــه لملأناه أمتعة ولكنه يريد نقلتنا منه ، وكان يرى تحريم إدخار ما زاد على نفقة اليوم [٢] .

ولأبي ذر (ﷺ) الكثير والكثير من الأحوال والأقـــوال التي تدل على تحقق الجانب الروحي في حياته ولذا قال الشيخ الأصفهاني – رحمه الله – في حقه أنه رجل تخلى من الدنيا ، وتشمر للعقبـــى ، وعاشق البلوى ، إلى أن الحق بالمولى [٣] .

تلك هي أهم المعالم والمظاهر الروحية في حياة الرسول (ﷺ) وحياة الصحابة ولقد كان لتلك المظاهر والمعالم الأثر الواضح فـــي حياة المسلمين عامة وفي حياة الصوفية خاصة على ما سيتضح بعد .

---

(١) المصدر السابق : ١ / ١١٩ وما بعدها .
(٢) الطبقات الكبرى للشعراني ٣٩ .
(٣) انظر : حلية الأولياء للأصفهانى : ١ / ٢٢٤ .

المبحث الثالث

مظاهر الحياة الروحية عند الصوفية

مظاهر وملامح الحياة الروحية عند الصوفية في المرحلة الأولى :

بعد هذه الدراسة عن طبيعة الحياة الروحية عند المسلمين في الصدر الأول من الإسلام نستطيع أن نحدد معالم هذه الحياة تاريخياً وفكرياً فأما تحديد هذه الفترة تاريخياً فإننا نجد أن جميع الدراسات التي تناولت الحياة الروحية عند المسلمين قد أجمعت على أن الحياة الروحية خلال القرنين الأول والثاني الهجريين قد تميزت بمميزات جعلت من هذين القرنين مرحلة فريدة بعينها لها معالمها الخاصة التي تميزت عن غيرها من المراحل التالية لها . أما عن معالم الحياة الروحية عند المسلمين خلال هذين القرنين فقد تميزت وتحددت بعدة معالم هي .

١- كانت الحياة الروحية عند الصوفية في هذه المرحلة قائمة على الزهد والتقشف والعبادة والتنسك والمجاهدة ورياضة النفس بكبح جماح هذه النفس وتعويدها على القليل من متاع الحياة الدنيوية الذي أحله الله سبحانه مقابل رضا الله ومحبته والثواب الجزيل الذي أعده الله لأهل هذا الطريق ، كذلك لم يكن الزهد في هذا العصر الإسلامي خلال القرنين الأول والثاني الهجريين حركة من الحركات الدينية ولا مذهباً من المذاهب ولا نظاماً جماعياً بل كان نزعة فردية رائدها الدين وحده ، القرآن وسنة الرسول(ﷺ)[١] .

٢- إن المسلمين في هذين القرنين لم تمنعهم العبادة أو الزهد والتقشف عن أخذهم لنصيبهم من الحياة الدنيوية ، فقد كانوا يجمعون بين الحياة الدنيوية والحياة الأخروية فلا عزلة ولا رهبانية إلا في حدود ما قننه الشرع وحدده الدين من ظروف قد تستدعي هذا الأمر أو ذاك الأمر [٢] . لذلك كان الهدف من الحياة الروحية عند الصوفية في مرحلتها الأولى هو طهارة القلب والنفس ونقاء الروح وصفائها ، بمعنى أن سلوك المسلمين في هذه الفترة من الحياة الروحية كان قائماً على الزهد والتقشف

---

(١) التصوف الثورة الروحية في الإسلام، د / أبو العلاء عفيفي، ص ٨٥ ، ط القاهرة ١٩٦٢م .

(٢) التصوف والصوفية في ضوء النصوص الدينية والبراهين العقلية ، د / محمد شلبي ، ص ٥٦ بتصرف يسير .

والتمسك ومجاهدة النفس من أجل الوصول إلى قلب تقي نقي مملوء بالورع والخشية وحب الله سبحانه [١] .

٣- في هذا الدور من أدوار الحياة الروحية عند المسلمين كان زهد المسلمين وتقشفهم وعبادتهم وأفكارهم الدينية – عقدية وغير عقدية – كانت كلها مأخوذة من كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) حيث كانوا يعتمدون في هذا على صريح الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وكان هذا بدون تدخل في النصوص بتأويلها أو غلو في تفسير النصوص وتحميلها من المعاني مالا تحتمل ، وكذلك بدون استعمال للرمز والإشارات الموغلة في المتاهات والغرائب والإلهام والإبهام [٢] .

٤- لم يكن في هذه الفترة من الحياة الروحية عند الصوفية أي مظهر من مظاهر العشق والمحبة التي تنتهي بصاحبها إلى ما سمي فيما بعد (بالمقام) أو (وحدة الوجود) أو (الصحو والسكر) تلك الأفكار التي ظهرت فيما بعد على يد بعض المسلمين الذين تسموا باسم الصوفية كمقامات وأحوال لابد للمتصوف أن يسلكها . يقول نيكولسون : " إن متصوفة القرن الثاني ظلوا على مذهب أهل السنة ملتزمين قواعد الشرع مع تمسكهم بالفقر ومحاربة النفس والتوكل على الله في جميع أمورهم " [٣] . كذلك لم يكن لعباد ونساك هذه الفترة لغة رمزية

---

(١) انظر : التصوف والصوفية ، د / محمد شلبي ، ص ٥٩ .
(٢) في التصوف الإسلامي وتاريخه ، د / أبو العلا عفيفي ، ص ٧٠ ، وراجع : المرجع السابق ص ٥٩ ، ٦٠ .
(٣) المرجع السابق نفس الصفحة .

أو تعبيرات واصطلاحات خاصة بهم أو يجمعهم اسم خاص يميزهم عن بقية المسلمين .

٥- قامت الحياة الروحية في الدور الأول من حياة المسلمين الروحية على العمل فقط والسلوك العملى لا غير ، حيث كانت هذه الحياة زهداً عملياً ، وتقشفاً علمياً ، ومجاهدة عملية وتطبيقاً علمياً لنصوص الشرع والدين وموازنة عملية بين أمور الحياة الدنيوية وواجبات الحياة الأخروية ، فلم يكن في هذا الدور نظريات فلسفية أو مصطلحات صوفية كالتي ظهرت بعد ذلك إذ كان التصوف بادي ذي بدء طريقة عملية لا مذهباً نظرياً [١] .

هذه صورة طيبة عن المرحلة الأولى من مراحل الحياة الروحية عند الصوفية التي كانت قائمة على الزهد والتقشف وبعيدة عن النظريات الفلسفية والأفكار والمصطلحات الصوفية التي لا تمت إلى الإسلام بصلة وقد اشتهر في هذه المرحلة بعض الصوفية الذين كان لهم دور كبير في طريق الزهد والتنسك والمجاهدة والتقشف ونظراً لكثرة هؤلاء المتصوفة في هذه المرحلة سنقصر الحديث على واحد منهم وهو الحسن البصري [٢] ذلكم العابد الناسك والعالم الفقيه

---

(١) تاريخ التصوف في الإسلام ، د / قاسم عفيفي ، ترجمة / صادق نشأت ، ص ٣٥ ، ط مكتبة النهضة ، القاهرة ١٩٧٢م

(٢) هو : الحسن بن أبى الحسن أبو سعيد ، ولد فى المدينة سنة ٢١هـ ، وكانت أمه مولاة لأم سلمة زوج النبى (ﷺ) ونشأ نشأة صالحة ، وتفقه فى الدين ، وأخذ عن بعض الصحابة ، وتروى بعض الروايات أن الإمام على (رضي الله عنه) قد شهد له بالعلم وأعجب به ، توفى سنة ١١٠هـ .

الذي ينظر إليه كافة المسلمين – صوفية غير صوفية – نظرة تقدير واحترام ، وحب وإعجاب. اتسم بحسن الأخلاق وعلو الهمة ، والزهد في متع الحياة الدنيوية، فضلاً عما حباه الله به من علم غزير وفقه رصين ، كما كان واعظاً قديراً ، وقاضياً نزيهاً .

ولقد كان الحسن البصري أوضح مثال للحياة الروحية في عصره بما اتسم به من زهد في الدنيا وإعراض عن جاهها وإقبال على الله بما لازمه من أحوال الخوف والحزن اللذين لازماه خوفاً من النار التي كان يظن أنها لم تخلق إلا له .

ومما يدل على زهد الحسن البصري ونزاهته أنه بعد أن تولى القضاء ، تنازل عن أجره في هذا العمل فكان لا يأخذ أجراً على عمله بالقضاء وقد استمر على هذا فترة من الزمن ثم طلب إعفاءه من منصبه هذا [١] .

وقد وصفه خالد بن صفوان فقال عنه : " كان أشبه الناس علانية بسريرة ، وسريرة بعلانية ، وآخذ الناس لنفسه بما يأمر به غيره ، يا له من رجل استغنى عما في أيدي الناس من دنياهم ، واحتاجوا إلى ما في يديه من دينهم [٢] .

قيل للحسن – رحمه الله – : أكثر الناس تعلم الآداب ، فما أنفعهم عاجلاً ، وأوصلها أجلاً ؟ قال : التفقه في الدين ، فإنه يصرف

انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان : ١ / ١٦٠ وما بعدها ، ط مطبعة بولاق ١٢٩٩هـ .

(١) الطبقات الكبرى طبقات ابن سعد : ٧ / ١٧٢ ، ط دار صادر ، بيروت .

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي ، ص ٥٠ ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط الأولى ١٤٠٤هـ .

إليه قلوب المتعلمين ، والزهد في الدنيا يقرب من رب العالمين ، والمعرفة بما لله عليك يحويها كمال الإيمان [١] .

ومن أقواله في الزهد : " الدنيا دار عمل من صحبها بالبغض لها والزهد فيها سعد بها ونفعته وصحبتها ، ومن صحبها رغبة ومحبة شقي بها ، وأرسلته إلاما لا صبر عليه . وكل هذا يدل على أن الحسن البصري كان متبعاً في زهده وحياته الروحية لمنهج المصطفى (ﷺ) والصحب الكرام على نحو ما يدل عليه قوله : " أدركنا أقواماً كانوا فيما أحل الله لهم أزهد منكم فيما حرم عليكم ، ويقصد بالأقوام من أدركهم من الصحابة .

وكان الحسن البصري بالإضافة إلى ما تقدم يوصي بلزوم رياضة الذكر من أجل تطهير النفس ، فقد قال له رجل : أشكو إليك قساوة قلبي ، فقال أدن من مجالس الذكر [٢] . ويتضح مما سبق أن المرحلة الأولى من مراحل الحياة الروحية عند الصوفية قد قامت واستمرت خلال القرنين الأول والثاني الهجريين على منهج عملي هو الزهد والتقشف والمجاهدة والعبادة وأنه لم تظهر خلال هذه المرحلة أية نظريات فلسفية أو صوفية من تلك التي كانت بعد هذه المرحلة ، كتلك المصطلحات الصوفية من عشق وسكر وصحو مقام وحال .. إلخ فهذه هي الأخرى لم يكن لها ظهور أو وجود في هذه المرحلة الأولى . وما يتشبث به بعض الصوفية من القول بظهور كلمة التصوف في عهد الحسن البصري ، أي في المرحلة الأولى من

---

(١) اللمع للطوسى ، ص ١٩٤ .

(٢) انظر : مدخل إلى التصوف الإسلامي، د / إبراهيم إبراهيم ياسين ، ص ٩٤ ، ٩٥ ، ط دار ومكتبة الإسراء ، ط الأولى ٢٠٠٥م .

مراحل الحياة الروحية عند المسلمين وكذلك ما يشتم من أشعار رابعة العدوية [١] من القول بالفناء والكشف أو ما ظهر في سيرة معروف الكرخي من ظهور مصطلح السكر والإبدال فهذه كلها – لو صحت عنهم – لكانت كلمات عابرة ظهرت من بعض الأفراد ولم تكن لها هذه الأبعاد الفلسفية والصوفية التي ظهرت بعد ذلك ، وإنما الصوفية الذين ألفوا وكتبوا في هذا العلم بعد ذلك هم الذين نسجوا هذه الأفكار والمعاني الصوفية حول هذه الكلمات وحملوها من الإيحاءات الصوفية ما لم يكن فيها وهذا كله بقصد الإيحاء والتأكيد على أن التصوف مقارن للإسلام في ظهوره ووجوده ، وأن الإسلام والمسلمين الأوائل هم مصدر هذا التصوف [٢] .

المرحلة الثانية من أدوار الحياة الروحية عند الصوفية :

عند استعراض الدور الأول من أدوار الحياة الروحية عند الصوفية تبين أن هذا الدور كان قائماً على الزهد والفقر والتقشف وإيثار الحياة الأخروية على الحياة الدنيوية ، كما تبين أن الصوفية في هذه الفترة كانوا في سلوكهم طريق الزهد والمجاهدة ... إلخ معتدلين متزنين فلا إفراط ولا تفريط ولا تشدد ولا مغالاة .

---

(١) اسمها كما يوردها ابن خلكان فى ترجمة لها هى أم الخير رابعة بنت إسماعيل العدوية البصرية القيسية ، ولدت فى البصرة ، وكان مولاها لآل عتيق ، وهى مثل رائع من أمثال الحياة الروحية فى الإسلام فى القرن الثانى الهجرى .
انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان : ١ / ٢٢٧ .

(٢) انظر : التصوف والصوفية في ضوء النصوص الدينية والبراهين العقلية ، د / محمد شلبي ، ص ٨٢ .

وأنه لم يأت القرن الثالث الهجري – وهو بداية المرحلة الثانية من مراحل الحياة الروحية عند الصوفية – إلا وكانت هناك من الصور والنماذج الفردية من المبالغة في العبادات والزهد والفقر وإيثار الآخرة على الدنيا . نواة المرحلة الثانية – من مراحل الحياة الروحية عند الصوفية – وقواعدها التي سار على منوالها كثير من الصوفية الذين فضلوا الزهد والفقر على الغنى وسعة الرزق وبهذا التصور لا يمكن فصل المرحلة الأولى عن المرحلة الثانية فصلاً تاماً وذلك لسببين [١] .

السبب الأول : إن سلوك طريق الزهد والتقشف والعبادة والتنسك لم ينقطع بنهاية القرن الثاني ، وإنما استمر كسمة من سمات الحياة الروحية في هذه المرحلة الثانية بل وفي العصور التالية لها .

السبب الثاني : أن كلمة صوفي وصوفية لم تكن بدايتها محددة تحديداً دقيقاً ببداية القرن الثالث الهجري إذ يقال أن هذه الكلمة كان لها ظهور في أواخر القرن الثاني الهجري فقد ذكر صاحب كتاب " اللمع " أنه في عهد الحسن البصري المتوفى سنة ١١٠هـ سمع هذا الاسم كما روي عن الحسن البصري أنه قال رأيت صوفياً في الطواف [٢] . ويقول القشيري في رسالته : " انفرد خواص أهل السنة والمراعون أنفاسهم مع الله تعالى الحافظون قلوبهم عن

---

(١) انظر : التصوف والصوفية في ضوء النصوص الدينية والبراهين العقلية، د / محمد شلبي ، ص ٨٣ وما بعدها .

(٢) انظر : اللمع للطوسي ، ص ٤٢ ، وراجع : المرجع السابق ، ص ٨٤ .

طوارق الغفلة باسم التصوف واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة [١] .

من هنا يصح لنا أن نقول بوجود تداخل بين المرحلتين الأولى والثانية من الحياة الروحية عند الصوفية [٢] .

معالم الحياة الروحية عند الصوفية في هذه المرحلة :

لقد قامت المرحلة الثانية من الحياة الروحية عند الصوفية على دراسة بعض الموضوعات التي ميزتها عما سبقها أو جاء بعدها من مراحل وكان من هذه المعالم والمظاهر ما يلي :

١- استمرار الصوفية في المرحلة الثانية على السير في طريق الزهد والتقشف والعبادة والتنسك ومجاهدة النفس كوسيلة لتطهير النفس والسمو بها لكن كان هذا بصورة أوسع وبطريقة أعمق فكرياً عما كان في السابق ذلك أن مسلك الزهد والعبادة في هذه المرحلة أخذ صورة التشدد ثم التشدد إلى أن وصل الأمر ببعض الزهاد والعباد إلى المغالاة مما جعل من هذا المسلك – مسلك الزهد والفقر والتنسك – وسيلة تميز المسلمين عن بعضهم البعض حيث أصبح يقال فلان ولي من أولياء الله الصالحين ، أما فلان فليس بولي ، وفلان صوفي أما فلان فليس بصوفي ، فلان زاهد ، فلان ليس بزاهد ، وهكذا بعد أن كان الزهد أمراً عادياً في المرحلة الروحية الأولى ولم يكن عامل

---

(١) ينظر : الرسالة القشيرية لأبى القاسم القشيرى ، ص ٤٥ .

(٢) اللمع للطوسي ، ص ٤٢ ، وراجع : التصوف والصوفية في ضوء النصوص الدينية والبراهين العقلية ، د / محمد شلبي ، ص ٨٥ وما بعدها .

تميز بين مسلم ومسلم . أصبح في المرحلة الثانية مقياساً ومميزاً لمسلم عن مسلم آخر [١] .

كذلك ظهرت في هذه المرحلة بعض الأقوال والمصطلحات التي لم تكن معروفة من قبل أو كانت معروفة لكنها لم تكن مشهورة ولم تكن سمة مميزة للناس عن بعضهم البعض كما لم تكن بهذا التوسع الذي ظهرت عليه هذه المصطلحات في المرحلة الروحية الثانية ، فلقد أصبح الناس يسمعون عن مصطلحات مثل العشق والمحبة والتشوق والخوف والرجاء والبسط والقبض ، وأن للشريعة ظاهراً وباطناً ، وفلان يلبس الخرقة من الملابس كما قيل للجنيد ماذا يحصل لو تجلبت المرقع مراعاة لأصحابك فقال : لو كنت أعلم أن المرقع فائدة لسبكت ثوباً من الحديد والنار وارتديته ولكنهم ينادون كل ساعة في باطننا أن ليس الاعتبار بالخرقة وإنما الاعتبار بالحرقة [٢] .

فهذا الذى يحكى عن الجنيد يعتبر نوعاً من أنواع التطور في الحياة الروحية في مرحلتها الثانية فبعد أن كانت الرياضات الروحية من زهد وعبادة وإماته للجسم هي العنصر الأساسي والمهم في تصوف المرحلة الأولى أصبحت المعرفة والتفكير والفناء في الله والخلوة والمناجاة والتوحد مع الله هي العنصر المهم والأهم في تصوف المرحلة الثانية [٣] .

---

(١) تاريخ التصوف في الإسلام ، د / أبو العلا العفيفى ، ص ٧٥ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٧٥ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٧٦ .

أيضاً ظهرت في هذه المرحلة ما كان يعرف بالنداء من وراء الحجب حيث نسب إلى الجنيد قوله : فقدت يوماً قلبي فقلت: يا إلهي رَدَّ عليّ قلبي فسمعت منادياً يقول: يا جنيد نحن سلبناك القلب لكي تكون معنا وتريد أن تبقى مع غيرنا [١] .

فهذه الصورة أو هذه الرواية التي تنسب إلى الجنيد ، ما هي إلا دعوة إلى وحدة الوجود " لكي تكون معنا " فإذا بحثنا عن هذه الدعوة أو هذا المصطلح في المرحلة الروحية الأولى فلن نجد لها اسماً ولا ظهوراً ولا معرفة لأحد بها، لذلك كانت وحدة الوجود وليد المرحلة الروحية الثانية ونتيجة من نتائجها مما يعتبر تطوراً في طريق الحياة الروحية يؤكد هذا قول الجنيد: " ما دمت تقول : " الله " وتقول : " عبد " فهذا شرك لأن العارف والمعروف واحد ، كما قالوا : ليس في الحقيقة إلا هو ، هاهنا الله فأين العبد ؟ أي أن الكل هو الله [٢]

٢- عرفنا أن المرحلة الأولى من مراحل الحياة الروحية عند الصوفية كانت قائمة على الأسلوب العملي والمنهج التطبيقي فقط ، فكان يقال هذا زاهد أي أنه يأخذ من الدنيا بقدر ما يعينه على العبادة فقط لأنه معرض عن متع الحياة الدنيوية وزخارفها ، لكن لم تكن هناك دراسات نظرية عن معنى الزهد أو مراتبه أو درجاته كما حدث في القرن الثالث الهجري الذي يمثل بداية المرحلة الثانية من مراحل الحياة الروحية عند المسلمين ، ذلك

---

(١)تاريخ التصوف في الإسلام ، د / أبو العلا العفيفى ، ص ٧٦ .
(٢)المرجع السابق ، ص ٧٧ .

أن الحياة الروحية أخذت تتطور تطوراً مهماً إذ قامت دراسات علمية مختلفة حول النفس الإنسانية وكيفية تربيتها تربية روحية وأخلاقية عالية وراقية . أيضاً ظهرت في هذه المرحلة دراسات فلسفية تمتد وتتغلغل في دراسة الحياة الروحية ، وبعد أن كانت هذه الحياة قائمة على العمل فقط في مرحلتها الأولى أصبحت هناك – بجانب العمل – دراسات نظرية ظهرت من خلالها خصائص نفسية وأخلاقية وفلسفية لم يكن يعرف بها أحد من قبل وإن كانت الدراسات الأخلاقية أعمق وأظهر من الدراسات النفسية والفلسفية ، فتحليل النفس الإنسانية وبيان الأحوال التي تعرض لها ، وترتيب المقامات التي تختلف عليها وتمثل الغاية القصوى على أنها فناء العبد عن نفسه وبقاؤه بربه واتحاده به مما تحدث عنه صوفية القرنين الثالث والرابع ... كل أولئك يكفي من غير شك لإظهارنا على أن التصوف لم يكن علماً للأخلاق الدينية الإسلامية فحسب وإنما كان كذلك علماً للنفس الإنسانية وللمنازع الميتافيزيقية التي تنزع إليها هذه النفس وترمي من خلالها إلى التحقق بالفناء عن وجودها والاتحاد بالذات الإلهية على نحو ما يظهر أبو يزيد البسطامي [١] والحسين بن منصور الحلاج [١] وأمثالهما من أصحاب الأذواق وأرباب الأحوال [٢] .

---

(١) هو : طيفور بن عيسى بن سروشان ، أبو يزيد كان جده سروشان هذا مجوسيا فأسلم ، وله أخوان آدم وعلى ، والبسطامى نسبة إلى بسطام بلدة كبيرة على طريق نيسابور .
انظر : الموسوعة الصوفية ، د / عبد المنعم الحفنى ، ص ٥١ ،

فإذا كان الزهاد والعباد في المرحلة الأولى من الحياة الروحية يرون أن خشونة الملبس والزهد في المطعم والمشرب ، وكثرة العبادات ومجاهدة النفس هو الطريق الموصل إلى الله سبحانه ، فإن صوفية القرنين الثالث والرابع الهجري كانوا يرون أن هذا المنهج العملي يعتني بجانب المنهج النظري لأن المنهج العلمي وسيلة لغاية أفضل أما المنهج النظري فهو في حد ذاته الغاية العظمي والهدف الأسمى الذي ليس بعده غاية ولا هدف ، فالناحية النظرية للتصوف في هذه المرحلة الثانية صارت أكثر أهمية وتغلبت على الناحية العملية التي كانت سائدة في المرحلة الأولى (٣) .

٣- وسبق أن ذكر أن الحب الإلهي كان مظهراً من مظاهر الحياة الروحية عند الصوفية في المرحلة الأولى وأن رابعة العدوية كانت صورة واضحة في الحب الإلهي في هذه الفترة ، وفي المرحلة الثانية من هذه الحياة الروحية استمر هذا الحب طابعاً للزهد الذي عرف عند رابعة العدوية في القرن الثاني ، فقد

ط دار الرشاد .

(١) هو : المغيث بن منصور الحلاج ، الزاهد المشهور، من أهل البيضاء ، ولد فى خراسان من نيسابور ، قيل إن أباه كان حلاجا فنسب إليه ، وفاته : لقد صدرت فتوى من الفقيه داود الظاهرى ضد الحلاج فقبض عليه ٢٩٧هـ وهرب ثم قبض عليه مرة ثانية وحكم عليه بالإعدام .
انظر : دائرة المعارف الإسلامية : ١ / ٥٤٣ .

(٢) الحياة الروحية في الإسلام د/ محمد مصطفى حلمي ص ١٢٢ .

(٣) تاريخ التصوف في الإسلام ص ٨١ ، ٨٢ .

كان هذا الحب أيضاً أخص خصائص التصوف عند صوفية القرنين الثالث والرابع [١] .

٤- ومن مظاهر التصوف ، ومعالم الحياة الروحية عند الصوفية في مرحلتها الثانية ، أن بعض الصوفية في هذه المرحلة قد خصصوا أماكن معينة يجتمعون فيها للقيام بالعبادات والأذكار كتلاوة القرآن ، أو ذكر الله سبحانه أو مدارسة بعض الأفكار الصوفية الجديدة مثل فكرة الفناء التي ظهر بها أبو يزيد البسطامي المتوفى ٣٦١هـ ووحدة الوجود التي ظهر بها الجنيد فمثل هذه الصورة من التجمع في أماكن معينة – غير التي أجمع عليها المسلمون – لأداء العبادات المختلفة لم تكن موجودة في المرحلة الأولى ، فالمسلمون في هذه المرحلة الأولى لم تكن تجمعهم جامعة ولا أمكنة خاصة لأداء عباداتهم بصورة جماعية غير ما اتفق عليه المسلمون من المساجد المخصصة لذلك [٢].

٥- ومن المظاهر الخطيرة التي كانت موجودة في المرحلة الثانية من مراحل الحياة الروحية عند الصوفية ، ذلك العداء الصارخ والخطير – الذي تكشفت عوامله ودوافعه وطرقه – الذي احتدم واشتد بين علماء الدين عامة والفقهاء منهم خاصة وبين صوفية المرحلة الثانية ، فعلماء الدين بجميع تخصصاتهم رفضوا فكرة الفناء في الله والحلول في الله أو الإتحاد بالله أو

---

(١) الحياة الروحية في الإسلام صـ١٢٣ .

(٢) التصوف والصوفية في ضوء النصوص الدينية والبراهين العقلية د/ محمد شلبي، ص ٨٦ .

وحدة الوجود تلك النظريات التي كانت سبباً في الحكم على بعض هؤلاء الصوفية بالكفر بسبب ابتداع هذه الفكرة وإشاعتها والترويج لها أو دفاعهم عنها ، بل إن بعض الصوفية حكم عليه بالقتل وتم تنفيذ القتل فيه بسبب هذه الفكرة التي رآها علماء الدين آنذاك – وكذلك اليوم – نوعاً من أنواع الكفر والإلحاد لأنها منافية للتوحيد الخالص الذي جاء به رسول الله محمد (ﷺ) [١] .

٦- ومن معالم الحياة الروحية في مرحلتها الثانية " أن التصوف أصبح مذهباً منظماً أثناء الجزء الأخير من القرن الثالث ، وصار للصوفية أساتذة وتلاميذ وقواعد للسلوك ، ولكنهم بذلوا ما في وسعهم من جهد للتوفيق بين تصوفهم وبين القرآن والسنة اللذين اتخذوهما أساساً لجميع أقوالهم وأفعالهم [٢] .

وقد استتبع هذه التوفيق وجود ظاهرة التأويل واستعمال لغة الرمز والإشارات في تأويل آيات القرآن وتفسيرها . وكذلك القول بالعلم الباطن الذي لا يصل إليه ولا يعرفه إلا الراسخون في العلم ولكي يتبين لنا ما كان يمتاز به التصوف في القرنين الثالث والرابع من الخصائص النفسية والأخلاقية والميتافيزيقية التي أشرنا إليها آنفاً ، يحسن أن نقف وقفات قصيرة عند بعض الشخصيات والمذاهب الصوفية التي تمثل هذه الخصائص تمثيلاً صادقاً .

أبو القاسم الجنيد :

---

(١) المرجع السابق ، ص ٨٧ .

(٢) في التصوف الإسلامي وتاريخه ، د / أبو العلا عفيفى ، ص ٢٧ .

لقد كان أبو القاسم الجنيد يدعو دائماً إلى التمسك بكتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) في أكثر من موقف وفي أكثر من موقع معلناً للجميع أن علمه هذا – أي علم التصوف – ليس من القيل والقال ولا من هذا وذاك وإنما هو راجع فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله .

ولعل فى عبارته التالية ما يشير إلى منهجه فى التصوف ، ولذا يقول : " من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به فى هذا الأمر – يقصد التصوف – لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة " (١) .

وهو يقول أيضا : " الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول (ﷺ) واتبع سنته ولزم طريقته " (٢) .

أيضاً لقد كان يدعوا إلى العلم وقد ظهرت دعوته هذه في أكثر من وصية من وصاياه وفي أكثر من نصيحة من نصائحه ولذلك كان هو من أهل العلم لكن العلم الذي يتكلم به يقول أنه ليس من عنده لأنه لو كان من عنده لفني ولكنه من حق بدأ وإلى الحق يعود (٣) .

ولقد جمع في طريقه إلى الله بين العلم والعمل ونعي على أولئك الذين يفضلون العلم والمعرفة على العمل ورأى أن هؤلاء هم الملاحدة فقد جاءه رجل وتحدث معه في المعرفة فقال الرجل : أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقوى إلى الله

---

(١) الرسالة القشيرية للقشيرى ، ص ١٩ .
(٢) طبقات الصوفية للسلمى ، تحقيق / نور الدين شريبة ، ص ١٥٩ ، ط الخانجى ، ط الثانية ١٩٦٩م .
(٣) حلية الأولياء للأصفهانى : ١٠ / ٢٦٣ .

فقال الجنيد : إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال وهـذه عنـدي عظيمة ... إن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله وإليه رجعوا ولو بقيت ألف عام لما نقص من أعمال البر ذرة [١] .

ولقد كان من أرائه أن الله سبحانه يستخلص لنفسـه بعـض العباد حيث " أفرد بخالص ذكره قلوبهم فهم في أقرب أماكن الزلفـى لديه ، وفي أرفع مواطن المقبلين به عليه ، أولئك الذي إذا نطقـوا فعنه يقولون ، وإذا سكتوا فبوقار العلم به يصـمتون ، وإذا حكمـوا فبحكمه لهم يحكمون [٢] .

وكان يرى أن الذين يقولون بأن الأولياء أفضل من الأنبيـاء هم ملاحدة إذ أن الصحيح عنده والذي يؤمن به هو أن الأنبياء أفضل من الأولياء [٣] .

وبعد هذا الاستعراض للتصوف في المرحلة الثانية من الحياة الروحية عند الصوفية يلاحظ أن التصوف قد تطور عما كان عليه في المرحلة الأولى من الناحيتين النظرية والعملية حيث وصـل الـبعض بالزهد والتقشف إلى حد المغالاة والتشدد وظهرت بعض المصطلحات التي لم تكن معروفة من قبل مثل العشق والشوق ، والخوف والرجاء ، والبسط والقبض ، والإبدال والأوتاد ... إلخ كما ظهر مصطلح جديد كثمرة من ثمرات الزهد والمجاهدة والمعرفة هو النـداء مـن وراء الحجب .

---

(١) المصدر السابق : ١٠ / ٢٧٨ .
(٢) المصدر السابق : ١٠ / ٢٦١ .
(٣) كشف المحجوب للهجويرى ، ترجمة د / إسعاد ماهر : ١ / ٣٤٣ ، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٧٦م .

كما ظهرت نظريات جديدة وخطيرة أثارت العديد من المناقشات والمجادلات بين علماء الدين وأهل التصوف ، ترتب على بعضها فرار بعض الصوفية من وطنهم وعدم استقرارهم في وطن معين فضلاً عن الحكم على بعضهم بالسجن والإعدام ، هذه النظريات هي وحدة الوجود ، الفناء في الله ، والحلول والإتحاد .

كما ظهرت في هذه المرحلة دراسات نظرية بجانب المنهج العملي التطبيقي ، هذه الدراسات لم تكن موجودة في المرحلة الأولى وذلك مثل تلك الدراسات النظرية المتعلقة بالأخلاق أو بالنفس أو بالفلسفة ولقد ظهرت الصوامع التي كان يتجمع فيها الذاكرون لله والمتعبدون والمتنسكون ، وإن كان هذا كله يتم في السابق بصورة فردية وفي أماكن غير جماعية [١] .

المرحلة الثالثة من مراحل الحياة الروحية عند الصوفية :

لقد حدد بعض الباحثين في مجال التصوف هذه المرحلة بالقرن الخامس الهجري وعلى الرغم من كثرة مظاهر الخلافات بين علماء الدين في هذه المرحلة إلا أن هذا الدور الثالث من أدوار الحياة الروحية عند الصوفية وإن كان أقل زمناً وتاريخياً ، وأكثر امتلاء بالخصومات والمجادلات إلا أنه كان أعظم هذه الأدوار تطوراً في الفكر الصوفي ، تأصيلاً لنظرياته وموضوعاته ، وتنظيماً لمنهجه وقضاياه ، كما كان مليئاً بالشخصيات الصوفية القوية في فكرها وعلمها وتصوفها ويكفي أن يذكر أنه كان على رأس هؤلاء الرجال العمالقة والعلماء الأفذاذ الإمام أبو حامد الغزالي ، فلقد سخر قلمه

---

(١) انظر : التصوف والصوفية ، د / محمد شلبي ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

لنصرة التصوف الحق وتنقيته مما أدخل عليه من أفكـــار أجنبيـــة لا يعرفها الإسلام وليست من أصوله أو فروعه في شيء [١] .

مظاهر الحياة الروحية في هذه المرحلة :

لقد كان من مظاهر الحياة الروحية في هذه المرحلة بالإضافة إلى ما كان من مظاهر فى المرحلتين السابقتين ما يلي :

أولاً : ظهور مبدأ العزلة كسلوك صوفي ديني ، حيث كان الصـــوفي يعتزل الناس والحياة بما فيها من أهل وأقـــارب وجيـــران وجماعـــة إسلامية هنا وهناك ، ثم يقبع في زاوية من الزوايا أو في صـــومعة من الصوامع [٢] .

وقد تمثل هذا في إنفراد الشيخ أبو الحسن الخرقاني المتوفى ٤٢٥هـــ حيث اعتزل الحياة والناس وقبع في زاوية من الزوايا .

ثانياً : ظهور مصطلحات صوفية جديدة – أو تطوير في مصـــطلحات سابقة – مثل السماع والهيام والوجد– وقد تمثل هذا فـــي تصـــوف الشيخ أبي سعيد بن أبي الخير .

ثالثاً : ظهور مبدأ الاعتدال – علماً وعمـــلاً – عنـــد بعـــض رجـــال التصوف ، وقد تمثل هذا في تصوف أبي القاسم القشيري وهو الذي يراه كثير من الباحثين والمفكرين ممثلاً للتصوف المعتدل بل ممـــثلاً للتصوف السني عند من يقول بهذا النوع من التصوف [٣] .

---

(١)جمهرة الأولياء وأعلام أهل التصوف للسيد / محمود أبو الفـــيض المنوفي ١ / ٢٨٣ ، مؤسسة الحلبي ، ط : الأولـــى ، وراجـــع : التصوف والصوفية ، د / محمد شلبي ، ص ١٣٠ وما بعدها .

(٢)كشف المحجوب للهجويرى : ١ / ٣٧ .

(٣)المصدر السابق : ١ / ٣٤ .

وقد اشتهر في هذا القرن الخامس الهجري شخصيات صوفية كبيرة كان لها وزنها وثقلها في مسار التصوف وتطوره من تلك الشخصيات .

أبو القاسم القشيري :

يعتبر القشيري – عند كثير من الباحثين – من الرواد الأوائل الذين قاموا بدور كبير ومهم في سبيل إعادة التصوف الذي كان في عصره إلى سيرته الأولى حتى يكون خالياً مما لحقه من شوائب وإضافات جعلت الكثير من الناس يتنكرون لهذا التصوف في تلك الفترة ، بل كانوا يتهمون التصوف والصوفية بالزندقة والخروج على تعاليم الكتاب والسنة ، لذلك حاول القشيري برسالته المسماة بالرسالة القشيرية أن يعود بالتصوف إلى عهد القوة والنقاء والخروج به من حالة الانهيار التي ألمت به بسبب بعض الدعاوي التي لا تتفق مع الإسلام كالقول بسقوط التكاليف أو بسبب بعض المذاهب الصوفية بآراء شيعية وإسماعيلية باطنية [١] .

والقارئ للرسالة القشيرية يجد أن أبا القاسم القشيري كان بعيداً في فكره وفي سلوكه الصوفي عن الإفراط والتفريط ، ورسالته أكبر شاهد على الاعتدال في الفكر الصوفي ولذا يلاحظ أن القشيري لم يترجم في رسالته للحلاج وذلك لما كان عليه الحلاج من جرأة في آرائه ومغالاة في أقواله [٢] .

---

(١)كشف المحجوب للهجويرى : ١ / ٨٥ .
(٢)انظر : التصوف والصوفية ، د/ محمد شلبي ص ١٣٥ .

ومن خلال ما سبق يمكن القول أن التصوف خلال القرن الخامس الهجري قد تطور – حسب رؤية بعض الباحثين والدارسين – تطوراً مهماً في جوانب متعددة فتغيرت صورته في القرن الخامس عما كان عليه في القرون السابقة ويتضح ذلك مما يلي :

١- منهج العزلة والانقطاع إلى العبادة في زاوية أو صومعة لم يكن موجوداً في القرون السابقة على القرن الخامس ، وكذلك الخانقاهات التي يجتمع فيها المريدون ويشرف عليها أحد مشايخ التصوف .

٢- العبادات الجماعية أو الذكر الجماعي ، وارتباط هذه الصورة في أدائها بالزوايا والصوامع أمر لم يكن له نظير فيما قبل القرن الخامس .

٣- المصطلحات الجديدة مثل السماع والهيام والوجد ، كل هذا يعتبر تطوراً في التصوف نظرياً وتطبيقياً [١] .

المرحلة الرابعة من أدوار الحياة الروحية عند الصوفية :

كل هذه الأحداث والمواقف التى كانت سائدة فى القرن الخامس الهجرى امتدت جذورها ومشاكلها وآثارها إلى القرن السادس الهجرى وبالتالى وتلقائيا إلى القرن السابع الهجرى ، فى نفس الوقت الذى لم تحظ فيه هذه الفترة بشخصيات صوفية فذة مثل تلك الشخصيات التى كانت فى القرن الخامس ، كما لم تحظ هذه الفترة بتلك المؤلفات الروحية القوية الرصينة مثل التى كانت فى القرن الخامس الهجرى ولا يخفى أن القرن السادس كانت به

---

(١) انظر : المرجع السابق ، ص ١٤٠

شخصيات صوفية قوية وكانت لهم مؤلفات عالية الجودة لكنها فى حقيقتها انقلاب على التصوف الحقيقى أو التصوف الذى يميل أكثره إلى الدين ويرضى العامة والخاصة من الناس ، إذ أصبح التصوف فى هذه الفترة تصوفا فلسفيا أغضب العامة والخاصة من الناس وألب الحكام وجماهير المسلمين على هذا المنهج الجديد [١] .

من هنا اعتبر بعض المفكرين المتصلين بهذه الدراسات الصوفية أن هذه المرحلة من مراحل الحياة الروحية عند الصوفية مرحلة انحدار وتدهور فى الفكر الإسلامى عموما وفى الفكر الصوفى خصوصا حيث بعد هذا الفكر الجديد بعدا كبيرا عن الدين وقرب قربا أكثر من المذاهب الفلسفية والأفكار الواردة من هذه البقاع أو تلك البقاع ، من هذه الحضارة أو تلك الحضارة بما فى هذه المصادر الغريبة عن الإسلام من تناقض وتعارض مع أصول الإسلام وحقيقة الإيمان ، ولذلك يرى بعض المتخصصين فى الدراسات الروحية أن هذه الفترة تعتبر فترة " تراجع " [٢] .

ولقد كان من صور هذا التراجع والانحدار فى الفكر الصوفى – عند هذا البعض – أنه لم يقتصر فى هذه المرحلة على دراسة النفس وأحوالها أو تعميق الدراسات الأخلاقية وتطبيقاتها وإنما تخطى هذا إلى نوع جديد من الدراسات العقلية والفلسفية ، تغلبت فيه هذه الدراسات الفلسفية واستفاضت وأخذت مكانة العلو والظهور

---

(١)انظر : جمهرة الأولياء وأعلام أهل التصوف للسيد محمود أبو الفيض المنوفى: ١ / ٢٨٣ ، وراجع : التصوف والصوفية ، د / محمد شلبى ، ص ٨٤ .

(٢)جمهرة الأولياء وأعلام أهل التصوف : ١ / ٢٨٣ .

على تلك الدراسات الروحية الدينية الخالصة ، وقد أدى هذا إلى ظهور جماعة من المتصوفة بصورة فلاسفة دينيين أو روحانيين مزجوا بين الفلسفة التى تقوم على الفكر والعقل والجدل والمناقشة وبين التصوف القائم على الذوق والإلهام والوجدان ، وكان من هؤلاء : السهروردى [١] المقتول صاحب حكمة الإشراق ومحيى الدين بن عربى [٢] وابن سبعين [٣] ، وكان هدف هؤلاء الصوفية الفلاسفة ومن تبعهم إقامة تصوف على دعائم فلسفية فكانت لهم نظريات الفلاسفة الخلص واختلط التصوف اختلاطا كبيرا لدرجة أنه فى القرنين السادس والسابع الهجريين اكتمل التصوف الفلسفى [٤] .

---

(١) هو : شهاب الدين السهروردى ، ينسب إلى سهرورد ، ويلقب بالمقتول وليس بالشهيد لأنه أتهم بالكفر والخروج عن السنة، وقيل: اسمه الحقيقى أبو الفتوح يحيى بن حبش بن أمير، = = وقيل : تم إعدامه خنقا ، وقيل : بالسيف ، وكان ذلك عام ٥٨٧هـ .
انظر : الموسوعة الصوفية ، عبد المنعم الحفنى ، ص ٢١٦ وما بعدها .

(٢) هو : أبو بكر بن على محيى الدين الخامتى الطائى الأندلسى ، كان يعرف بابن سراقة ، ولد ٥٦٠هـ ، استقر بدمشق وتوفى بها ٦٣٨هـ ، من تصانيفه : كتابه المسمى : بالفتوحات المكية .
انظر : البداية والنهاية لابن كثير : ١٣ / ١٥٦ .

(٣) هو : أبو الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن محمد بن سبعين ، وكنيته أبو محمد ، ويلقب بألقاب كثيرة منها : قطب الدين ، وبالمرسى ، ولكن اللقب الذى اشتهر به هو ابن سبعين ، ولد ٦١٤هـ وتوفى فى مكة ٦٦٨هـ وله من العمر ٥٥ سنة .
انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان : ١ / ٥٦٦ .

(٤) فى الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه ، د / إبراهيم مدكور : ٢ / ٦٩ ، ط الثالثة ، دار المعارف بمصر ، وراجع : التصوف والصوفية ، د / محمد شلبى ، ص ١٣٧ .

ومن هذه الصورة نجد أننا أمام نوعين من التصوف ، أو مرحلتين – من مراحل التصوف ، تصوف ديني – أو هو أقرب إلى الدين منه إلى الفلسفة – وتصوف فلسفى ، فأما التصوف الفلسفى فقد أخذ يشق طريقه فى الثبات والانتشار – منذ القرن السادس الهجرى – وقام عليه نخبة من العلماء والمفكرين شهد لهم التاريخ بقوة الفهم والذكاء والرسوخ فى العلم والبحث والدراسة ، أما النوع الثانى فهو ذلك التصوف الذى كان قريبا فى منهجه وموضوعاته من الدين ، وهذا النوع من التصوف قد أخذ يشق طريقه نحو الانحدار والتراجع وذلك للأسباب الآتية :

السبب الأول : طغيان العنصر الفلسفى على العنصر الدينى فى تلك الدراسات الروحية أو الصوفية فبعد أن كان العنصر المهم فى الدراسات الروحية أو الصوفية هو دراسة النفس وأحوالها ورسم طريق وصولها إلى الله (ﷻ) ، بالإضافة إلى تعميق الدراسات الأخلاقية وتطبيقاتها مع الاستناد فى هذا كله إلى المنهج الإسلامى والأخذ من مصدرى الإسلام القرآن والسنة ، (بعد أن كان هذا) إذ بهذا الدراسات الروحية (الصوفية) تولى وجهتها نحو المنهج الفلسفى العقلى الذى تغلبت فيه الدراسات الفلسفية واستفاضت على تلك الدراسات الروحية الدينية.

السبب الثانى : إنه في هذا الدور من ادوار الحياة الروحية عند الصوفية اختلط علم الذوق والوجدان والإلهام بالديانات المحرفة وما ارتبط بها من فلسفات دينية كاليهودية والنصرانية .

السبب الثالث : اختلاط الدراسات الروحية (الصوفية) عند المسلمين بتلك الفلسفات الشرقية التى هى فى قواعدها وموضوعاتها منهجها متعارضة ومتناقضة مع الإسلام كتلك الفلسفات الهندية والبوذية بالإضافة إلى الفلسفة اليونانية التى أعجب بها كثير من مفكرى العالم الإسلامى (١) .

السبب الرابع : اختلاط الدراسات الروحية الصوفية عند المسلمين بعلم الكلام القائم على الجدل والمغالطات والأفكار الفلسفية الواردة عليه من هنا أو هناك .

السبب الخامس : ما كان عليه بعض رجال التصوف من زعمهم الاطلاع على الغيب والمعرفة ببعض الغيبيات قبل وقوعها ، بل زعمهم كشف الحجب والاطلاع على المستور ، وأن هذا راجع إلى أنهم أهل المجاهدات والربانيين من العباد ، وأن الله قد حباهم دون غيرهم فأعطاهم مقدرة على التصرف فى هذه الغيبيات قبل وقوعها " فيتصرفون بهممهم وقوى نفوسهم فى الموجودات الفلسفية بحيث تصير طوع إرادتهم ... وظهر فى كلام الصوفية القول بالقطب الذى يدل عندهم إما على الحقيقة المحمدية التى كانت قبل أن يكون الخلق وإما على الإنسان الكامل الذى تحقق من كمال العلم والعمل بحظ جعله أهلا لأن يكون فى أعلى مراتب الصوفية وهى مرتبة : رأس العارفين " (٢) .

---

(١) انظر : الحياة الروحية فى الإسلام ، ص ١٤٠ ، وراجع : التصوف والصوفية ، د / محمد شلبى ، ص ١٤١ .

(٢) انظر : الحياة الروحية فى الإسلام ، ص ١٣٧ ، ١٣٨ ، وراجع : التصوف والصوفية ، د / محمد شلبى ، ص ١٤١ .

وهكذا أصبحت الأفكار الصوفية مطعمة بالأفكار الفلسفية والكلامية وذلك أن كثيرا من الأبحاث المتعلقة بالفلسفة وعلم الكلام غزت الأفكار الصوفية ، بل أصبحت هذه القضية الكلامية والفلسفية قضايا صوفية أساسية تدور حولها الأبحاث والدراسات الصوفية ، من ذلك مسألة حقيقة الله والعالم والمعرفة ، علة التكوين ومسألة ربط القديم بالأحداث ومسألة الروح والبدن وعلاقتهما ببعضهما البعض [١]

وعلى كل فقد كان هذا الانحدار الذى لحق بالتصوف الدينى أو القريب من الدين متمثلا فى اتجاهين :

الاتجاه الأول :وهو الاتجاه العلمى ويقصد بالانحدار فى هذا الجانب قلة المؤلفات العلمية التى تبدع فى هذا الفكر الصوفى وتبسطه للناس وتدافع عنه ضد الهجوم المستمر الذى كان يلحق هذا العلم والقائمين عليه .

وإذا كانت هذه المرحلة أو هذا الدور من أدوار الحياة الروحية عند الصوفية لم يخل من المؤلفات الروحية الصوفية فإنها بالنسبة للمؤلفات الصوفية التى قبلها كانت تعتبر قليلة وشحيحة .

الاتجاه الثانى : وهو الاتجاه العلمى ويقصد بهذا أن بعض رجال التصوف أصبحوا بعيدين عن منهج الحياة الروحية الحقة سلوكا وتطبيقا ومالوا إلى المناقشات الفلسفية والمجادلات المنطقية ، بل إن كثيرا منهم تشبع بشئ من عناصر الغرور وحب الظهور والتقرب إلى

---

(١)تاريخ التصوف فى الإسلام ، ص ٦٩٠ بتصرف يسير ، وراجع : التصوف والصوفية ، د / محمد شلبى ، ص ١٤٥ .

السلطة الحاكمة فى ذلك الوقت من محاولة هذا البعض من الصوفية السيطرة على عقول العامة من النـــاس بتلـــك الكرامـــات وخـــوارق العادات التى قد تكون مزعومة ومدعاه كذبا وزورا ، هذا إلـــى مـــا تسرب إليه (أى إلى هذا التصوف) من ضروب المخرقـــة وألـــوان الشعبذة حتى لقد خالف كثير من المنتســـبين إلـــى بعـــض الطـــرق الصوفية ما سار عليه السلف الصالح مـــن ســـنن الزهـــد والعبـــادة وأصول المجاهدة والرياضة الأمر الذى ترتب عليه أن خرجت الحياة الروحية عن معناها الذى ينبغى أن تدل عليه ، وانحرفت عن غايتها التى ينبغى أن تسعى إليها " [١] .

ولقد ترتب على هذا النهج الصوفى الجديد أن انتشرت مفاهيم جديدة ومعانى غريبة ومصطلحات يصعب على العقل المسلم الناضج قبولها أو الرضا بها كالقول بالاتحاد بين الخالق والمخلـــوق (بـــين العابد والمعبود، بين الرب والعبد، بين المادى المحســـوس والغيبـــى الروحانى) أو القول بالحلول حيث تحل الذات البشرية فـــى الـــذات الإلهية وتفنى فيها ، ثم كانت الطامة الكبرى والخطيئة العظمى – فى نظر علماء الدين وعامة المسلمين – فى نتيجة هذا المنهج الصوفى الجديد ألا وهى ظهور ما سمى " بوحدة الوجود " و " وحدة الشـــهود " و " الوحدة المطلقة " تلك النظريات أو العقائد الصوفية الجديدة التى أججت الخصومات السابقة وأوقدتها حربا شعواء مـــن جديـــد بـــين التصوف والدين أو بين الصوفية وعلماء الدين الإسلامى من كافـــة التخصصات الدينية .

---

(١)الحياة الروحية فى الإسلام ، ص ١٦٤ .

ومما ينبغى ملاحظته أنه وإن كان التصوف الذى انتقل إلى القرن السادس الهجرى وكان متسما بالتدين أو سائرا فى بعض جوانبه على منوال السلف الصالح ، قد مال إلى الانحدار والتراجع للأسباب التى ذكرتها سابقا ، فإنه فى نفس الوقت كان التصوف المتشبع بالفلسفة أو ما سمى بالتصوف الفلسفى فى حالة ازدهار وتقدم وعلو الدرجة أن كثيرا من الباحثين والدارسين قد رأى أنه ما إن جاء القرن السابع الهجرى إلا وقد بلغ هذا التصوف الفلسفى درجة النضوج والكمال مستدلين على هذا بظهور بعض العمالقة فى هذا النوع من التصوف من أمثال : السهروردى المقتول ، ومحيى الدين بن عربى ، وجلال الدين الرومى ، وابن سبعين ، وغير هذا وذاك [١] .

وأيا ما كان الأمر فإن التصوف فى القرنين السادس والسابع الهجريين قد تناول بعض الموضوعات التى يمكن أن تميزه – فى نظر كثير من الباحثين – عن تصوف القرون السابقة ، لكنها وإن كانت موضوعات قد رفعته وعلت به فكرا وفلسفة إلا أنها نزلت به دينا فى قلوب كثير من المسلمين وبخاصة العلماء منهم ، أما هذه الموضوعات التى ميزت تصوف هذين القرنين فهى :

١. أن صوفية هذا الدور من أدوار الحياة الروحية عند المسلمين حاولوا رسم الطريق لوصول العبد إلى الصفاء والنقاء وعلو الروح وسموها حتى تصل إلى المكانة العالية إلى الحضرة

---

(١) انظر : تاريخ التصوف فى الإسلام ، ص ٦٩٥ ، وراجع : التصوف والصوفية فى ضوء النصوص الدينية والبراهين العقلية ، د / محمد شلبى ، ص ١٥٢ .

الإلهية إما بطريق الحلول فى الذات الإلهية أو الاتحاد بين الخالق والمخلوق أو عن طريق الفناء والاستغراق فى ذات الله (ﷻ) وذلك مرورا بالمجاهدات النفسية والرياضيات البدنية التى تعنى العبادات الشاقة وكثرة هذه العبادات فضلا عن الزهد والتنسك ومحاولة معرفة الذات الإلهية بتلك المناهج الصوفية التى قال بها هذا الصوفى أو ذاك الصوفى .

٢. لم تقف محاولات الصوفية فى هذين القرنين عند حد الاتحاد بالله أو الاستغراق فى ذاته ولكن هناك طموح أكبر من هذا وهو محاولة إزالة الحجب التى تقف عقبة بين العبد وربه حتى يتيسر لهذا العبد كشف الغيبيات أو بعض هذه الغيبيات كل بحسب ما يكون عليه العبد من ذوق ووجدان وما وصل إليه من أحوال ومقامات إذ أنه كلما ارتقى هذا العبد فى الأحوال والمقامات كلما تكشفت الحجب إلى أن لا يكون هناك أى حجاب حينئذ يطلع هذا العبد على كثير من الغيبيات " كالصفات الربانية والعرش والكرسى والملائكة والوحى والنبوة والروح وحقائق كل موجود غائب أو شاهد وترتيب الأكوان فى صدورها عن موجدها وتكونها " [١] .

٣. الشطحات : نالت الشطحات أهمية كبيرة من صوفية القرنين السادس والسابع الهجريين ، فما أكثر هذه الشطحات ، وما أشدها غرابة ، وما أشدها إيلاما لقلب المؤمن الحق .

---

(١) الحياة الروحية فى الإسلام ، ص ١٣٩ ، وراجع : التصوف والصوفية ، د / محمد شلبى ، ص ١٤٣ .

ولما كان الصوفية هذه المرحلة من الحياة الروحية عند المسلمين قد كان لهم دور كبير في الحلول والاتحاد والفناء ووحدة الوجود ... الخ – ولا شطح الا وقد سايره حلول واتحاد ووحدة وجود وفناء – كان أمرا طبيعيا وتلقائيا أن يكون صوفية هذين القرنين ، السادس والسابع الهجريين ممن وقعوا فى الشطح وتلبسوا به ، وهذا حق ، فقد أورد المؤرخون والباحثون كثيرا من هذه الشطحات منسوبة إلى أصحابها ، بل إن مشايخ الصوفية أنفسهم قد سطروا فى مؤلفاتهم هذه الشطحات تاريخا لها ودفاعا عنها وبيانا للمراد منها وأوضح صورة لهذا هو كتاب اللمع لأبى نصر السراج وكتاب حلية الأولياء لأبى نعيم الأصفهانى [١] .

وقد ظهرت فى هذه المرحلة شخصيات صوفية كثيرة وكبيرة ، كان لها وزنها وثقلها فى تاريخ الحياة الروحية عند المسلمين نختار منها الشخصيات التالية :

السهروردى المقتول :

لقد صدرت منه أقوالا اعتبرت عند علماء عصره من الشطحات والانحرافات المعادية للدين والتى بسببها يخرج صاحبها من العقيدة الإسلامية ، وذلك مثل ما نسب إليه أنه قال : " أنا الحق " أو " أنا حق " وهذا مذهب حلولى اتحادى ، وقد اشتهر السهروردى بما يسمى (الفلسفة الإشراقية) التى يراها بعض الباحثين خليطا من أفكار دينية إلى أخرى فلسفية يونانية إلى عناصر مزدكية مانوية ،

---

(١) انظر : التصوف والصوفية فى ضوء النصوص الدينية والبراهين العقلية، د / محمد شلبى ، ص ١٥٤ .

فيرجع هذه الفلسفة عند هؤلاء الباحثين " وأساسها الأول أن الله نور الأنوار ، وموضع جميع الكائنات ، فمن نوره خرجت أنوار أخرى هى عماد العالم المادى والروحى " [١] .

والعقول المفارقة ليست إلا وحدات من هذه الأنوار تحرك الأفلاك وتشرف على نظامها فالفلسفة الإشراقية تعتمد إذن على نظر العقول العشرة الفارابية وهى فى سياقها فلسفة يونانية مختلطة بعناصر مزدكية ومانوية [٢] .

والسهروردى فى هذا التصوف الفلسفى أو فى هذه الفلسفة الإشراقية مؤلفات مهمة فى هذا الجانب الإشراقى ، من أهمها: (حكمة الإشراق) ، (هياكل النور) ، (الغربة الغريبة) .

---

(١) انظر : فى الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه ، د / إبراهيم مدكور : ١ / ٥٤ .

(٢) انظر : المرجع السابق نفس الجزء والصفحة .

الخاتمـــة

الحمد لله الذى تتم بنعمته الصالحات ، وبرضاه ننال الدرجات فى جنات عاليات عرضها الأرض والسماوات ، نســـأله ســـبحانه أن يجعل آخر أعمالنا خواتيمها ، وخير أيامنا يوم أن نلقاه فيه .

وبعد ،،،

فهذه خاتمة لدراستنا حول موضوع : " **الجانب الروحى فى حياة السلف وأثره فى نشأة التصوف** " وقد أسفرت هذه الدراسة عن النتائج الآتية :

أولا : إن علم التصوف يمثل الحياة الروحية فى الإسلام ، إذ أن بداية الحياة الروحية فى الإسلام تبدأ من حياة الرســـول (ﷺ) وأصـــحابه وما كانوا يأخذون به أنفسهم من زهد فـــى الـــدنيا وأعـــراض عـــن زخرفها وجاهها وإقبال على الله بقلوبهم ، فالإسلام هو الذى أســـس قواعد هذا العلم ومنه أخذت موضوعاته ، وعلى هذا فعلم التصـــوف ليس علما جديدا فى الإسلام ، وإنما هو أحد علومه الأصلية وجـــزء

من الأجزاء التى يتألف منها التراث الـــدينى والعقلـــى والشـــعورى للإسلام .

ثانيا : إن التصوف ليس هروبا من واقع الحياة كما يقول أعـــداؤه ، وإنما هو محاولة من الإنسان للتسلح بقيم روحية جديدة تعينه علـــى مواجهة الحياة المادية ، وتحقق له التوازن النفســـى حيـــث يواجـــه مصاعبها ومشكلاتها ، وبهذا المفهوم يصبح التصوف إيجابيا ما دام يربط بين حياة الإنسان ومجتمعه .

ثالثا : إن الحياة الروحية التى كان يحياها النبى (ﷺ) وأصحابه إذا حللناها إلى عناصرها التى تألفت منها ، ومعانيها التى انطوت عليها ، ووازنا بينها وبين حياة الزهاد والعباد الذين ظهـــروا فـــى صـــدر الإسلام من ناحية ، وبينها وبين حياة الصوفية الذين ظهروا بعد ذلك من ناحية أخرى ، رأينا أن التصوف هو الاسم الجامع لطوائف أولئك وهؤلاء وتعاليمهم ، وما يعمدون إليه من رياضات ومجاهدات يرمون بها إلى تنقية النفس وتصفية القلب .

رابعا : إن علم التصوف مثل أى علم من العلوم ، تختلف بدايته عن نهايته ، ونهايته عن بدايته ، بمعنى أنه علم لم يبق على حالة واحدة فقط وإنما خضع للتطور والتأثير والتأثر ، فمصدر التصوف عند أول تكوينه قد استمد أصوله من القرآن والسنة ، ومن أحوال الصـــحابة وأقوالهم ، على أن أحوال الصحابة وأقوالهم لم تكـــن لتخـــرج عـــن الكتاب والسنة ، وبهذا يكون المصدران الأساســـيان للتصـــوف فـــى الحقيقة هما القرآن والسنة ، وهذا ينتهى بنا إلى مذاهب الصـــوفية

ترجع فى أصلها إلى مصدر إسلامى ، إلا أنه بمرور الزمن وبحكم اتصال الأمم واحتكاك العقائد قد تسربت وظهرت بعض المصطلحات والنظريات التى لا تمد إلى ذلك التصوف ، وإنما هى مصطلحات ونظريات دخيلة على الصوفية ووليدة ثقافة غير إسلامية .

خامسا : إن الزهاد المسلمين وصوفيتهم الأولين إنما كانوا من صفاء النفس وجلال القلب ، والقدرة على كشف الحقيقة إلى حد بعيد ، لأنهم أخذوا أنفسهم فيما كان يأخذ به النبى (ﷺ) نفسه من زهد وورع وعكوف على العبادة ، فتأثرهم حياة النبى (ﷺ) الروحية لا تأثرهم بالديانات والفلسفات الأجنبية هو الذى جعل منهم زهادا وصوفية لأول مرة فى تاريخ الحياة الروحية فى الإسلام .

سادسا : إن الحياة الروحية فى الإسلام تجرى على سنن القصد الصالح فى الحياة البشرية لا استغراق فى مطالب الجسد ، ولا انقطاع عنه فى سبيل الآخرة ، وإنما كانت قواما بين هذا وذاك ، وإذا كان الإسلام قد عرف أناسا من النساك الذين تفرغوا للمطالب الروحية ، فإنما كان ذلك على سنة التخصص فى كل مطلب من مطالب الحياة الروحية ، ولم يكن من قبيل الإلغاء ، أو التعطيل لمطلب من هذه المطالب الضرورية .

وفى الختام نسأل الله العلى القدير أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم وأن يجعله فى ميزان حسناتنا يوم أن نلقاه .

وصل الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا

المصادر والمراجع

** القرآن الكريم (جل من أنزله)

١. آثار البلاد وأخبار العباد للقزوينى ، المصدر : موقع الوراق .

٢. إحياء علوم الدين للغزالى ، ط دار المعرفة ، بيروت .

٣. الأدب الصوفي في مفهوم جديد ، أ / عبد الكريم الخطيب ، ط دار الثقافة العربية ١٣٨٤هـ ١٩٦٥م ، القاهرة .

٤. البداية والنهاية لابن كثير ، تحقيق / علي شيري ، ط دار إحياء التراث العربي ، ط الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م

٥. تاريخ التصوف الإسلامي ، د / عبد الرحمن بدوي ، ط وكالة المطبوعات بالكويت ، ط الثانية ١٩٧٨هـ .

٦. تاريخ التصوف في الإسلام ، د / قاسم عفيفي ، ترجمة / صادق نشأت ، ط مكتبة النهضة ، القاهرة ١٩٧٢م

٧. التربية لعالم حائر ، سير رتشرد لفنجستون ، ترجمة / وديع الضبع .

٨. التصوف الثورة الروحية في الإسلام ، د / أبو العلاء عفيفي ، ط القاهرة ١٩٦٢م .
٩. التصوف والصوفية فى ضوء النصوص الدينيـــة والبـــراهين العقلية، د/ محمد شلبى ، ط الحرية ، ط أولى ٢٠٠٧م .
١٠. التعرف لمذهب أهل التصوف لأبى بكر الكلاباذى ، تحقيق د / عبد الحليم محمود ، د / طه عبد الباقى سرور ، ط القـــاهرة ١٩٦٠م .
١١. تلبيس إبليس لابن الجوزى ، ط دار الجبل ، بيروت .
١٢. جمهرة الأولياء وأعلام أهل التصوف للسيد / محمـــود أبـــو الفيض المنوفي ، مؤسسة الحلبي ، ط الأولى .
١٣. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للأصفهاني ، ط دار الكتـــب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط أولى ١٤١٨هـــ ١٩٩٧م .
١٤. الحياة الروحية فى الإسلام ، د/ محمد مصطفى حلمـــى ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م .
١٥. دائرة المعارف الإسلامية ، إبراهيم زكى خورشيد وآخرون ، ط الشعب .
١٦. دائرة معارف القرن العشرين للأستاذ / محمد فريد وجدى، ط دار المعرفة، بيروت ، لبنان .
١٧. دراسات فى التصوف والأخلاق ، د / إبراهيم محمد إبراهيم ، بدون .
١٨. الدعوة السلفية وموقفها من الحركات الأخرى ، عيد عباس ، ط دار الإيمان بالإسكندرية ، ط ٢٠٠٢م .
١٩. الرســـالة القشـــيرية لعبد الكريم القشيرى ، تحقيق د / عبد

الحليم محمود ، د / محمود بن الشريف ، ط دار الكتب الحديثة بالقاهرة .

٢٠. الرياض النضرة في مناقب العشرة للمحب الطبري، ط القاهرة ١٣٢٧هـ .

٢١. السلفية موسوعة الحضارة العربية والإسلامية ، د / محمد عمارة ، ط دار المعارف للطبع والنشر ١٩٩٤م .

٢٢. سنن ابن ماجه ، تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي ، ط دار إحياء الكتب العربية ، فيصل عيسى البابي الحلبي .

٢٣. سنن الترمذي ، تحقيق / أحمد محمد شاكر وآخرون ، ط دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

٢٤. السنن الكبرى للبيهقي ، تحقيق / محمد عبد القادر عطا ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط الثالثة ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م .

٢٥. شعب الإيمان للبيهقي ، تحقيق / محمد السعيد بسيوني زغلول ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط الأولى ١٤١٠هـ .

٢٦. صحيح البخاري ، ط دار المعرفة .

٢٧. صحيح مسلم ، تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي ، ط دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

٢٨. صفوة التصوف للمقدسى ، تحقيق / غادة المقدم عدرة ، ط دار المنتخب العربى ، لبنان ، بيروت ١٩٩٥م .

٢٩. طبقات الصوفية للسلمى ، تحقيق / نور الدين شريبة ، ط الخانجى ، ط الثانية ١٩٦٩م .

٣٠. الطبقات الكبرى لابن سعد ، ط دار صادر ، بيروت .
٣١. الطبقات الكبرى للشعراني ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط الأولى ١٤١٨هـ ١٩٩٧م .
٣٢. العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط الأولى ١٤٠٤هـ .
٣٣. عوارف المعارف للسهروردى ، تحقيق د / عبد الحليم محمود ، د / محمد الشريف ، ط دار الكتب الحديثة بالقاهرة .
٣٤. فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ، ط دار المعرفة ، بيروت .
٣٥. فلسفة الحياة الروحية منابعها ومشاربها ونشأتها ونشأة التصوف والطرق الصوفية، د/ مقداد يالجن، ط دار الشروق، ط الأولى ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م .
٣٦. فى التصوف الإسلامى وتاريخه ، ارنيولد . أ . نيكولسون ، ترجمة د/ أبو العلا عفيفى، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٨٨هـ، القاهرة .
٣٧. فى الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه ، د / إبراهيم مدكور ، ط الثالثة ، دار المعارف بمصر .
٣٨. فى الفلسفة والأخلاق ، د / محمد خالد جعفر ، بدون .
٣٩. كشف المحجوب للهجويرى ، ترجمة د / إسعاد ماهر ، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٧٦م .

٤٠. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال للمتقي الهندي البرهان، تحقيق/ بكري حياني، صفوت السقا، ط مؤسسة الرسالة، ط الخامسة ١٤٠١هـ-١٩٨١م .
٤١. لسان العرب لابن منظور ، ط دار صادر ، بيروت .
٤٢. اللمع لأبى نصر السراج الطوسى، تحقيق د/ عبد الحليم محمود ، د / طه عبد الباقى سرور ، ط دار الكتب الحديثة بمصر ١٣٨٠هـ .
٤٣. مدخل إلى التصوف الإسلامي ، د / إبراهيم إبراهيم ياسين ، ط دار ومكتبة الإسراء ، ط الأولى ٢٠٠٥م .
٤٤. مدخل إلى التصوف الإسلامي لأبى الوفا التفتازانى ، ط دار الثقافة للنشر والتوزيع ، ط الثالثة .
٤٥. مسند أبو داود الطيالسي، تحقيق د / محمد بن عبد المحسن التركي، ط دار هجر ، مصر ، ط الأولى ١٤١٩هـ ١٩٩٩م .
٤٦. مسند الإمام أحمد ، تحقيق / شعيب الأرنؤوط ، عادل مرشد ، وآخرون ، ط مؤسسة الرسالة ، ط الأولى ١٤٢١هـ ٢٠٠١م .
٤٧. مسند الشهاب للقضاعي، تحقيق / حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط الثانية ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م .
٤٨. مصنف ابن أبي شيبة ، تحقيق / كمال يوسف الحوت ، ط مكتبة الرشد ، الرياض ، ط الأولى ١٤٠٩هـ .
٤٩. المعجم الأوسط للطبراني ، تحقيق / طارق بن عوض الله

بن محمد ، عبد المحسن بـــن إبـــراهيم الحســـيني ، ط دار الحرمين ، القاهرة .

٥٠. المعجم الكبير للطبراني ، تحقيق / حمدي بن عبـــد المجيـــد السلفي ، ط مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، ط الثانية .

٥١. المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية ، ط ثالثة .

٥٢. معجـــم مقاييس اللغـــة لابن فارس ، تحقيق / عبد السَّـــلام محمد هَارُون ، ط اتحاد الكتاب العرب ١٤٢٣هـــ ٢٠٠٢م.

٥٣. الموسوعة الصوفية ، د / عبد المنعم الحفنى ، ط دار الرشاد .

٥٤. موقف ابن تيمية من الأشاعرة ، د / عبد الرحمن المحمود .

٥٥. نظرات حول الإعداد الروحى الشهيد الشيخ حســـين معـــن ، بدون .

٥٦. النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير، تحقيق / طاهر أحمد الزاوى، محمود محمد الطناحي، ط المكتبة العلميـــة ، بيروت ١٣٩٩هـــ ١٩٧٩م .

٥٧. الوفا بأحوال المصطفى للأمام أبي فـــرج الجـــوزي ، ط دار الكتب الحديثة ، ط أولى ١٣١٦هـــ ١٩٦٦م .

٥٨. وفيات الأعيان لابن خلكان ، ط مطبعة بولاق ١٢٩٩هـــ .